فيصل حوراني

فلسطيني في حزب البعث



ذكريات من الزمن الجميل



فلسطيني في حزب البعث
ذكريات من الزمن الجميل

فيصل حوراني

1998

تشبثت قيادة حزب البعث بتطبيق نظرتها القومية العربية على صيغ التنظيم الحزبي ، فكان على عضو الحزب ، أيا كان البلد الذي نشأ فيه أو جاء منه ، أن يندمج في منظمة الحزب في البلد الذي يقيم فيه ، سواء كانت اقامته دائمة او مؤقتة . وقد انطبق هذا على الاعضاء الفلسطينيين ، أيضاً ، فشكلوا ، كما عرفت حتى الآن ، جزءاً من شعبة الطلبة العرب في جامعة دمشق حين لم يكن للحزب في سورية منظمة غيرها ، ثم صار عليهم أن يندمجوا في منظمات الحزب المحلية في الأحياء التي يقيمون فيها عندما اعيد بناء الحزب في البلاد .

وكان من المتعذر أن يظل فلسطينيو الحزب ، جميعهم ، بمنأى عن تأثيرات الحركة العامة لتأسيس المنظمات الفلسطينية المستقلة وعن تأثير التوجه العام لتأكيد خصوصية الوضع الفلسطيني وابراز الشخصية الفلسطينية . وقد أفصحت هذه التأثيرات عن نفسها ببروز دعوة بين البعثيين الفلسطينيين تنادي بتجميعهم في منظمة خاصة بهم داخل

الحزب ، فكنت أنا بين أوائل الدعاة الساعين الى هذا الهدف . انطلقت هذه الدعوة ، أول ما انطلقت ، من واقع الحال في الحزب ، كما بدا عند وقوع الانفصال . فأعضاء شعبة الطلبة العرب الفلسطينيون كانوا من انشط اعضائها ، وكان هؤلاء بحكم إقامتهم الدائمة في البلد أكثر الأعضاء استقراراً في التنظيم . ثم إن هؤلاء تميّزوا بتركيزهم على العمل في اطار اتحاد الطلاب الفلسطينيين ، وعزز هذا التميز نجاحُهم الظاهر في هذا العمل . وهناك ميزة اخرى وفرها واقع الحال للأعضاء الفلسطينيين ، نشأت عبر الدور الكبير الذي لعبه هؤلاء حين كان عمل الحزب التنظيمي مقتصراً على شعبة الطلبة العرب . وقد تعززت هذه الميزة حين أوكل للشعبة ، وفي صلب قوامها الفلسطينيون ، دور كبير في إعادة بناء الحزب في سورية . وتمثلت هذه الميزة ، اجلى ما تمثلت ، في الدالة الكبيرة التي صارت للبعثيين الفلسطينيين لدى قيادات الحزب ، اثناء عملية اعادة التنظيم وبعدها . لقد اتاحت المساهمة في هذه العملية لكل فلسطيني في الحزب أن يكون على صلة شخصية بعدد كبير من الاعضاء السوريين ، وبضمن هؤلاء الأعضاء الذين تولوا قيادة الحزب على مختلف المستويات ولعبوا ادواراً كبيرة في حياة الحزب والبلد . لقد عرفت شيئاً عن العلاقة ، مثلاً ، مع صلاح البيطار الذي كان يقدر في الأعضاء الفلسطينيين نشاطهم الجمّ وتضحياتهم ومواظبتهم على اداء الواجب ويحرص على الاحتفاظ بعلاقة طيبة معهم حتى حين يختلف هو وإياهم حول هذا الشأن أو ذاك . ولكي أوضح لك الأمر اكثر ، سأضرب مثلاً آخر ، علاقتنا بالدكتور نور الدين الاتاسي الذي سيصبح في وقت لاحق عضواً في قيادتي الحزب القطرية والقومية ووزيراً ونائباً لرئيس الوزراء ثم رئيساً للدولة . كان الدكتور نور الدين في عهد الوحدة طبيباً في مستشفى المجتهد الحكومي في دمشق وقد انقطعت صلته بتنظيمه الحزبي منذ حلّ الحزب . والأعضاء الفلسطينيون هم الذين هيأوا للدكتور نور الدين أن يظل على اطلاع على شؤون الحزب ، فكانوا يزورونه ويحملون اليه النشريات ويزودونه بالأنباء ويطلبون منه التبرع للحزب ، فيدفع تارة ويرفض تارة اخرى . وقد اتاحت لهم هذه الصلة أن يعرفوا

الرجل عن قرب وأن يتعرفوا على نقاط ضعفه وقوته ، واتاحت له ان يشهد فضلهم على الحزب في أصعب الأوقات . فلما عاد الدكتور نور الدين الى التنظيم وتقدم في مراتب المسؤولية كان بمقدور البعثيين الفلسطينيين ، ايا تكن مراتبهم ، ان يعتمدوا عليه بصفته صديقاً أو قل : أن يمونوا عليه ، وان يتعاملوا معه بندّية وانفتاح . وقد يفيد ان اذكر لك مثلاً آخر ، عبد الله الأحمر ، فهذا البعثي من سكان بلدة التلّ القريبة من دمشق رغب في العودة الى الحزب عندما اعيد البناء ، وكان عليه من أجل ذلك ان يظفر بموافقة المخوّلين بالقرار بهذا الشأن . وقد عرف البعثي التلاوي ما عرفه سواه من ان للاعضاء الفلسطينيين نفوذاً حاسماً ، فاختار ما وجده اقصر الطرق وتوجه اليهم . وقد أنسى اشياء كثيرة غير اني لا أنسى سلال التين التي كان عبدالله الاحمر الشاب يجيء بها الى منزل محمد بصل .

كان الشاب القادم من البلدة المشهورة بإنتاج التين يملأ سلته من أجود الثمر مخفياً تحته ما يكلف بنقله سراً الى القيادة ومتأثراً بتقاليد الريف الذي نشأ فيه وظاناً ان الهدية الطيبة تليّن القلوب ، ويسري مع الصباح الباكر كي يصل بتينه طازجاً . وكنّا نظفر ، بالطبع ، ببعض هذا التين ونتلذذ به ولا يفوتنا ان نتندر حول الحكاية ، وبعد عودة هذا الرفيق الى الحزب ، لم يتوقف تواتر سلال التين ، بل صار تينها أجود وصارت المواد السرّية المخفية تحت التين أكثر أهمية .

وعندما طلبنا الاستقلال في منظمة حزبية خاصة بالفلسطينيين ، وجدنا ممانعة صارمة من الامين العام ، ميشيل عفلق ، وعدد كبير من أعضاء القيادة . كان هؤلاء مفرطي الحساسية ازاء شبهة الإقليمية ، او القطرية ، كما يسمون التوجه للاهتمام بشؤون قطر عربي واحد لوحده ، وقد عدّوا دعوتنا للاستقلال دعوة الى القطرية . وكان الممانعون ينطلقون من اعتقادهم بأن قضية فلسطين هي قضية العرب كلهم ، فلم يجيزوا للفلسطينيين ان ينفردوا ، دون العرب الآخرين ، بمسؤوليات خاصة إزاءها . غير أننا وجدنا ، أيضاً ، مَنْ يدعم دعوتنا بين القادة . ثم إن الحركة الناشطة على الساحة الفلسطينية ما كان من الممكن ان تظل بغير تأثير في أي حال

من الاحوال . وقد عرفت ، حتى الآن ، كيف أن المؤتمر القومي الرابع للحزب تبنى قرار انشاء جبهة وطنية فلسطينية مستقلة عن الحكومات . فالواقع ان تأييد الجميع للقرار لم ينبع من دوافع متجانسة ، فمعظم الذين أيّدوه عدّوه دعوة لاستقلال العمل الفلسطيني عن الحكومات ، وحدها ، وليس عن الجمهور العربي ومنظماته السياسية الشعبية . وبعض المصوّتين لصالح القرار انطلقوا من دوافع براغماتية صرفة فعدّوا انشاء الجبهة الفلسطينية أداة لإبعاد الفلسطينيين عن الالتفاف حول عبد الناصر . لكن الأمر لم يخل من مصوتين فهموا الحاجة العميقة لإعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني الخاص وايدوا القرار من هذا المنطلق . وكان من السهل ان نقع دائماً بين البعثيين الذين نحاورهم في الأمر على مؤيدين لدعوتنا ، وإن ظل هؤلاء اقلية . وظل أملنا كبيراً بإمكانية توسيع نطاق هؤلاء المؤيدين يوماً بعد يوم . وكأفراد أعضاء في التنظيم البعثي ، وكذلك كمجموعة تعمل في الاتحاد العام للطلاب ، تصرف معظمنا منذ البداية على أساس ان يوم ظفرنا بمنظمة مستقلة قادم لا محالة ، وذلك دون ان نهمل أياً من واجباتنا الحزبية في المجالات الاخرى كافة ، بل دون ان نتخلى عن حرصنا على ان نظل متفوقين فيها ، وكان من شأن هذا ان عزز ثقة مؤيدينا بنا . وفي ظني انه لولا أن الاحداث العاصفة التي تلت وقوع الانفصال طغت على الاهتمام بدعوتنا لما تأجل البث بها طويلاً بعد المؤتمر القومي الرابع ، ففي ظل الوقع السريع للأحداث وازدياد حاجة الحزب لجهودنا على الساحة السورية ، وجدنا انفسنا مثقلين بالواجبات على هذه الساحة فضلاً عن الواجبات التي نتولاها على الساحة الفلسطينية . فبالاضافة الى الاعباء المضنية ، متعددة الوجوه ، والتي نضطلع بها في سياق عملية اعادة التنظيم ، كانت هناك هذه النشاطات الأكثر اضناءً التي اقترنت بالانقسامات والخلافات بين البعثيين . لقد فرضت علينا الانقسامات صراعات أكلت الكثير من جهدنا وأثرت تأثيراً سلبياً على صلتنا بالساحة الفلسطينية ونشاطنا فيها .

وها أنا ذا اتذكر حادثة طريفة بمقدار ما هي مؤذية وقعت في سياق هذا

الصراع . فقد نظمنا رحلة اشترك فيها عدد من طالبات الجامعة وطلابها ، من اعضاء التنظيم البعثي وأصدقائهم . انطلقنا من دمشق وتوجهنا الى اللاذقية وغابات الفرنلق والراس البسيط وصلنفة على أن نمضي ثلاثة ايام . وكما يحدث في مثل هذه الرحلات ، غادرنا دمشق مع الفجر ، وكانت وقفتنا الأولى في حمص التي بلغناها في السادسة وتناولنا الافطار في إحدى مقاهيها . ثم توقفنا ، ثانية ، في طرطوس وزرنا جزيرة أرواد . وبعدها ، توقفنا في جبلة حيث رحّب بنا بعثيون سوريون من آل الخير واستضافونا في منزلهم . وبتنا ليلتنا الاولى في اللاذقية . ثم توجهنا مع الصباح الى الشمال فأمضينا النهار في الغابات متنقلين من موقع الى آخر وسط تلك الطبيعة التي لا حدود لسحرها . ووقّتنا وصولنا الى الرأس البسيط بحيث نشهد غروب الشمس ونسمر في الموقع وسط الطبيعة التي تتشكل هناك في واحد من اكثر مشاهدها فتنة . وبتنا ليلتنا الثانية في اللاذقية ، أيضاً ، ثم أخذنا طريق العودة عبر القدموس والمناظر المدهشة التي تكتنف هذا الطريق . ولما بلغنا حمص رتبنا الأمر بحيث نتناول العشاء في الميماس في متنزه قائم على نهر العاصي ، ثم عدنا الى دمشق مع إطلالة الفجر .

رحلة كهذه الرحلة كان من شأنها أن توفر فرصاً عديدة للمتعة والترويح عن النفس والحوارات الهادئة وتمكننا من اجتذاب الاصدقاء الى الانضمام للحزب ، لو ان الجو السائد بين الرفاق كان طبيعياً . لكن الذي حدث بالفعل كان عكس هذا تماماً ، فبدل المتع ، لم ننل إلا الغمّ ، وبدل الحوارات الهادئة لم نتخاطب إلا متصايحين او متنابذين ، وبدل أن نجتذب الأصدقاء فقد نفّرناهم .

انقسم المشتركون الى كتل تمثل التيارات المتصارعة داخل حركة البعث ، وتجمع الذين كنّا نعدهم بعثيين ناصريين في كتلة فيما تجمع الذين نطلق عليهم صفة القطريين في كتلة أخرى . ووجدنا أنفسنا ، نحن الواقعين بين التيارين الملتزمين بالولاء للقيادة القومية ، منعزلين في كتلة ثالثة . وبرز من كل كتلة هتّاف ومغنّ ومطلق تشنيعات . وتبارت الكتل ،

عبر الهتافات والأغاني والتشنيعات الصريحة او الملغزة، في اظهار المواقف المتمايزة وتسفيه مواقف الآخرين. كان حمدان حسين حمدان، وهو ابن صياد السمك الطبري محسوباً وقتها على كتلة القطريين، وكانت في صوته حلاوة استغلتها كتلته فجعلته مغنيها. وقد اختار حمدان الألحان الشائعة فادّاها محوّراً في كلماتها لتعكس موقف كتلته او تسخر منّا. واتذكر أن حمدان دأب على ترديد أغنية «ما لي جلد ما لي، عَ فرقة الغالي، يا شاغلين بالي، لا تشغلوا بالي!»، رامزاً بالغالي الى عبد الناصر ومحوراً اللحن ليسخر من المتفجعين على فراقه. وكان سامي قنديل، وهو من كتلتنا، يفتقر الى حلاوة الصوت التي لحمدان، الا أنه كان الأقدر على توظيف الأغاني للهزء من الآخرين، فكلما انطلق حمدان في اغنية وكاد يسيطر على المستمعين، كان سامي يتدخل فيشرع في اغنية اخرى، يردّ بها على حمدان ويكيل للجماعة المناوئة الصاع صاعين. وكان هذا وأمثاله من مظاهر السلوك الاستفزازي يستتبع المشاحنات ويملأ وقتنا بالمنغّصات.

ولم ينته غمّ الرحلة عند هذا الحد، بل امتدّ بعد ذلك عبر تبادل التهم بين المتنابذين وما استتبعه من استقصاءات وتحقيقات طويلة.

كنّا جميعاً ما نزال اعضاء في تنظيم واحد. وكان النظام الداخلي للحزب يحظر التكتل داخل التنظيم ويبيح للقيادة فصل أي عضو تثبت عليه تهمة التكتل. وشاء الطرف الموصوف بالقطري ان يستغل وقائع الرحلة ليستخلص منها دليلاً على اننا متكتلون فيضغط على القيادة كي تفصلنا من الحزب. وكانت قيادة التنظيم موزعة، آنذاك، بين القوميين والقطريين مناصفة، اذا استثنينا محمد خليفة الذي لم يكن قد حسم موقفه بعد. وكان لمحمد صديق من اعضاء التنظيم يحبه ويؤثره هو عبدالله الصباح. وكان هذا الأخير قد غدا شديد التعصب للقطريين بمقدار ما غدا مبغضا لعبد الناصر. وفي محاولة من عبدالله هذا لاستمالة محمد الى صفه، عرض وقائع مشاحناتنا في الرحلة على نحو يظهر ان الأعضاء المحتفظين بالولاء للقيادة القومية تصرفوا ككتلة مستقلة وعادوا رفاقهم

الآخرين . ولأن محمد حزبي منضبط ، أو قل حرفيّ ، متشبث بالنظام الداخلي ، فقد طلب من عبدالله ان يكتب رأيه لقيادة التنظيم بدل الثرثرة في المجالس الخاصة . فاستجاب عبدالله لهذا الطلب وكتب تقريراً مفصلاً ، فكان لا بدّ من تشكيل لجنة للتحقيق في الوقائع التي أوردها كاتب التقرير . وقد تشكلت اللجنة فضمت عضواً من هذا الطرف وعضواً من الطرف الآخر وأنيطت رئاستها بالعضو الوحيد غير المصطف من اعضاء القيادة وهو محمد خليفة . وتحوّل التحقيق الى حكاية طويلة ، وانشغلت اللجنة لبضعة اسابيع به ، واستقتل كل طرف في محاولته لإدانة الطرف الآخر واثبات تهمة التكتل عليه . أما ما حسم الأمر فهو الخطأ الذي وقع عبد الله فيه في بداية تقريره ، ذلك ان المطالب باثبات تهمة التكتل علينا استهلّ تقريره بالعبارة التالية : «من دمشق الى حمص ، لم يحدث شيء» . وقد تشبثنا ، نحن ، بهذه العبارة ومدلولها ، واقنعنا محمد المتردد بأن عبارة مثل هذه لا يكتبها الا شخص كلّف مسبقاً بمراقبة ما يجري فانتبه الى أن الساعتين اللتين استغرقتهما الرحلة ، بين دمشق وحمص ، لم تشهدا ما يستحق الذكر . فمن الذي كلّف عبد الله بالمراقبة إن لم يكن التكتل الذي تثبت الوقائع الأخرى انه متورط فيه . وبميل محمد الى الأخذ برأينا ، اختل التوازن المتحقق في قيادة التنظيم لصالحنا ، وتهيّب الآخرون من متابعة الخصومة ، فخرج منهم من التنظيم مَنْ خرج واستكان الآخرون ، وأكسبتنا عبارة «من دمشق الى حمص ..» جولة مهمة ، فصرنا نردد هذه العبارة في كل مرة نواجه فيها مأزقاً ونتوخى الخروج منه ، واشتهر أمر كاتب العبارة فصار من شأن اي راغب في استفزازه بسهولة ان يواجهه بها .

ومع استغراقنا الشديد في الهموم الداخلية للحزب وغرقنا في الحياة السياسية السورية ومعارضة معظم اعضاء القيادة القومية لتخصيص تنظيم للفلسطينيين ، لم يغب هذا الهدف عن بالنا ولم نهمل المطالبة به في أي وقت . وكان هذا الموضوع يشكل جانباً من حواراتنا حين نلتقي خارج إطار الهيئات الحزبية التي تجمعنا بأبناء الأقطار الأخرى من البعثيين . ثم

جاءت بعض الحاجات العملية لتعزز موقفنا وتساعدنا على تحقيق بعض الخطوات باتجاه مطلبنا .

بدأ الأمر ببروز الحاجة الى تشكيل لجنة حزبية تشرف على شؤون الساحة الفلسطينية بالذات بعد أن اتسعت نشاطات الفلسطينيين في سورية وغيرها من البلدان وكثرت تنظيماتهم وظهر أنهم مرشحون للعب دور متزايد الأهمية في الحياة العربية العامة . وقتها ، لم تعد اللجان المشكلة للإشراف على عمل اتحاد الطلاب أو رابطة المعلمين أو رابطة موظفي الاونروا تفي بالغرض ، فتأسست لجنة حزبية عليا تشرف على الشؤون الفلسطينية عامة وتتولى إعداد الدراسات ووضع التوصيات التي يسترشد الحزب كلّه بها في عمله في مجال قضية فلسطين . وصارت هذه اللجنة تابعة للقيادة القومية مباشرة . كنت انا قبل ذلك عضواً في اللجنة المشرفة على عمل الاتحاد وفي الأخرى المشرفة على عمل رابطة المعلمين ، وصرت عضواً في اللجنة العامة التي كان مسؤولها الأعلى عضو القيادة القومية الفلسطيني خالد اليشرطي المقيم في لبنان ومسؤولها الفعلي محمد بصل . وقد لعبت هذه اللجنة دوراً تزايدت أهميته بمضيّ الوقت في تثبيت وجود مركز فلسطيني متخصص داخل الحزب واستقطاب عمل الأعضاء الفلسطينيين فيه على اختلاف مواقع اقامتهم في البلاد العربية ، وليس في سورية وحدها .

قدم محمد بصل الذي تردد اسمه كثيراً في هذا الحديث ، وهو الذي يكبرني بسنين قليلة ، الى دمشق لاجئاً اليها مع اسرته من صفد ، وكان ثاني أكبر أخوته العشرة . في صفد ، كان راعي هذه الاسرة صاحب دكان يعيل اسرته من دخلها ويتطلع الى تعليم اولاده وتأمين مستقبل افضل لهم . فلما أُرغمت الاسرة على الهجرة ، فقدت مورد عيشها وصار عليها ، كغيرها من الأسر المماثلة ، أن تتدبر أمرها كي تنهض من جديد وسط الخراب المفاجىء . واتبعت الاسرة الأسلوب الذي اتبعته أسر فلسطينية كثيرة ، فتوقف ابنها الأكبر ، أحمد ، عن متابعة دراسته وعمل سائقاً ، كما توقفت عن متابعة الدراسة الابنة الكبيرة ، واسمها عربية ، واشتغلت

معلمة في مدرسة للأونروا . وبهذا ، تمكنت اسرة محمد من النهوض من الخراب الذي حل في العام ١٩٤٨ ، وأكمل أبناؤها الآخرون ، ذكوراً واناثاً ، التعليم . وحصل محمد على علامات جيّدة في الشهادة الثانوية فأهله هذا للانتساب الى كلية العلوم حيث درس الرياضيات والفيزياء ، وكان ذلك في معمعات العمل ضد ديكتاتورية الشيشكلي ، واجتذب البعثيون محمد الى صفوفهم فصار واحداً من نشطائهم المعروفين في الجامعة . وبعد تخرجه في الجامعة ، بحث الفلسطيني الذي جاء دوره لإعالة الأسرة عن عمل ذي دخل طيب فظفر بوظيفة مدرس في احدى ثانويات ليبيا ، ووجد نفسه وهو ما يزال في مقتبل شبابه في واحة «سبها» ، بعيداً ، وسط الصحراء . ولم يقصر البعثي المتحمس نشاطه على التدريس ، بل عمل على تأسيس خليّة للحزب . وبعد سنتين ، اكتشفت السلطات الليبية تنظيماً سرياً للبعث وقادت اعضاءه الليبيين للمعتقلات ، وكان محمد وغيره من البعثيين غير الليبيين ، وبينهم الفلسطيني يسار العسكري ، في دمشق في الاجازة ، عندما كشف التنظيم ، فصار من الطبيعي ألا يعود الى حيث تنتظره أجهزة الأمن ، فبقي في سورية ، وحصل على وظيفة معلم في مدرسة اعدادية تابعة للأونروا ، وواصل نشاطه الحزبي عبر التنظيم السري الذي كان عضواً في قيادته . وقد تولّى محمد عبئاً كبيراً في عملية اعادة بناء التنظيم السوري للحزب ، فضلاً عن أعبائه الكثيرة على الساحة الفلسطينية . ولما قام هذا التنظيم وتشكلت هيئاته من جديد ، تولّى محمد ، على ما اتذكر ، رئاسة لجنة الرقابة الحزبية في القطر السوري ، وهي لجنة كانت ، وقتها ، واسعة الصلاحيات قوية النفوذ ، فتحققت لرئيسها مكانة كبيرة في الحزب . ثم جاء عمل محمد في لجنة فلسطين ، وكان هو الموجه الفعلي لعملها فتوفر له مزيد من الصلاحيات وتوسعت صلاته بقادة الحزب من مختلف المستويات . وكانت لمحمد حتى ذلك الوقت منزلة خاصة عند أهم اثنين في قيادة الحزب ، ميشيل عفلق وصلاح البيطار . وقد استفادت لجنة فلسطين من مكانة محمد الخاصة كما استفادت من الوضع المتميز للبعثيين الفلسطينيين كلهم ، ففرضت نفسها

لجنة موجهة للعمل الفلسطيني للحزب، وليس مجرد هيئة استشارية.

ولأمر ما، وجدني محمد بصل، كما سبق ان ذكرت لك، شخصاً يمكن الركون اليه، وما كدنا نتعارف حتى صرت واحداً من الذين يلتقون به يومياً، في ظروف العمل العام وفي الظروف الخاصة. وعبر العمل المشترك، في الحزب، وفي الفرع، توثقت علاقتي بمحمد وزادها وثوقاً تقارب الأمزجة في كثير من الشؤون الخاصة. وكان هذا البعثي الفلسطيني يفوقني خبرة ومعرفة تمتد علاقاته المتنوعة في ساحات اوسع من التي ألفتها أنا، وقد استفدت من هذا كله ومن حرصه على توفير فرص الخبرة لي وزيادة حظي من المعرفة وتوسيع علاقاتي في أكثر من مجال.

كنت أمضي نهاراتي في متابعة المشاغل التي أتولاها؛ أغادر مسكني في السابعة والنصف لابدأ عملي في المدرسة في الثامنة صباحاً وأبقى فيها حتى منتصف النهار حين يحل وقت استراحة الغداء التي استغلها، غالباً، في الجري لأداء مهام عاجلة او الذهاب الى الجامعة ومتابعة محاضرة مهمة. وفي الثانية بعد الظهر، أكون في المدرسة من جديد وآتابع العمل حتى الثالثة والنصف، حين يبدأ الوقت الذي اوزعه بين واجباتي في التنظيم الحزبي وفي «الطليعة الطلابية التقدمية» التي شكلها الحزب في الجامعة والمدارس الثانوية وطلب منا أن ننضم إليها جنباً إلى جنب مع الطلبة البعثيين السوريين واصدقائهم، ثم اتوجه بعد ذلك الى مقرّ الفرع حيث الأعباء الكثيرة التي أتولاها بصفتي عضواً في قيادته، والمواعيد الكثيرة التي اعقدها لتصريف شتى المهام الاخرى.

كنت اتوجه الى مقرّ الفرع في وقت مبكر من كل مساء وأبقى فيه أربع او خمس ساعات. وهناك، كانت تنعقد حلقات الجدل اليومي التي تناقش شتى الشؤون العامة. ولأن الساحة السياسية كانت تموج بالصراعات وتتميز بالتطورات السريعة، فإن حواراتنا كانت، دوما، ساخنة. ولم تفتقر هذه الحوارات أبداً الى الموضوعات التي تجعل الجدل حاداً وصاخباً. كان هناك موضوع الانفصال والتباينات العديدة بين مؤيديه

ومعارضيه ، بين الداعين الى عودة الوحدة دون شروط والداعين الى تقييد عودتها بشروط تتوفر فيها الديمقراطية والتكافؤ بين الاقطار الداخلة فيها . وكانت هناك ، أيضاً ، الاجراءات المتعاقبة لحكم الانفصال والتبدلات المتواترة داخل الحكم والصراعات الظاهرة والخفيّة بين ناسه وانعكاسات ذلك كله على احوال البلد وردود فعل مختلف القوى ازاءه . كانت نيّة جماعة الانفصال في الغاء المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي تحققت في عهد الوحدة واضحة ، ولكن اجراءاتهم في هذا المجال كان مقدراً لها أن تصطدم بمعارضة قوية يتولاها الوحدويون على اختلاف تياراتهم وينخرط فيها بعض مَنْ أيدوا الانفصال ذاته وخصوصاً الشيوعيون . وقد ألغى عهد الانفصال تأميم البنوك والشركات الصناعية الكبيرة وشرع في إعداد الخطط لإلغاء قانون الاصلاح الزراعي وتبديل قوانين العمل ، فأهاج القوى المعارضة والغالبية الكبيرة من الجمهور وحفزها على النشاط ضده . وكانت هناك الصراعات بين عسكر العهد وسياسييه ، بين الراغبين في الهيمنة بوسائل ديكتاتورية والمتطلعين لإقامة نظام برلماني ديمقراطي ، وكذلك الصراعات داخل كل جانب ، بين متضاربي الطموحات والتطلعات من العسكريين المتنفذين انفسهم وبين مختلف الكتل والقوى السياسية متعددة المصالح . وفي سياق هذه الصراعات ، المتعددة والمتداخلة ، كانت وقائع جديدة تقع في كل يوم تقريباً وتشغل حواراتنا وتجتذبنا الى الانخراط في دوامتها وتحفزنا على النشاط . وقد تأسس لدينا انطباع راسخ بأن عهد الانفصال غير مستقر وغير قابل للاستمرار ، فكنا نتعامل معه بوصفه عهداً عابراً لن يلبث أن يتبدل . وكان هذا يحفزنا على مزيد من النشاط ويدفع جلّ حواراتنا نحو استشراف المستقبل ومحاولة استقراء معالم البديل القادم .

وإذا كان الفلسطينيون قد وقفوا بأغلبيتهم الساحقة ضد الانفصال ، وإذا كان النشطاء منهم قد انخرطوا بعزيمة قوية في مقاومة اجراءاته ، فانهم قد اختلفوا بشأن المستقبل . لم يتعلق الامر ، هنا ، بالاختلاف حول طبيعة الوحدة المأمولة ولا حول طبيعة الديمقراطية المطلوبة ، بل تعدى هذا وذاك

إلى الاختلاف حول طبيعة المساهمة الفلسطينية في الحياة العامة . وفيما بقي القوميون العرب من الفلسطينيين عند موقفهم القائم على أساس عروبة معركة تحرير فلسطين ، راح الموقف الآخر الداعي الى إبراز الشخصية الفلسطينية يتعزز ويكتسب مزيداً من المناصرين . وكانت أماسي المقرّ المحتشد ، عادة ، بزواره تشهد الجدل بين ممثلي التيارين والآخرين ممن يقفون بينهما أو على أطرافهما . وكانت تلك ، بالنسبة لي ، مدرسة تعلمت فيها الجدل في السياسة . وكنت ، كما ينبغي أن أصارحك ، معدوداً بين المتميزين في هذا الجدل . وقد اشتهرت بأني واحد من ذوي الألسنة الحادّة في التشنيع على الخصوم . وتميز سلوكي بمفارقة لم اتمكن من التخلص منها الا بعد انقضاء سنوات عديدة ، ذلك أني كنت ، على العموم ، جمّ التهذيب حين يتعلق الأمر بالعلاقات الشخصية واللياقات الاجتماعية الخاصة ، أما في الشأن السياسي فكنت ، بوجيز العبارة ، قليل التهذيب . وكان يطيب لي حين انخرط في الجدل أن أداهم محاوريّ مداهمة ، فلا أراعي احداً ، ولا أجامل ، ولا اقيم وزناً لأي حسابات . خاصمت دعاة الوحدة الفورية بمقدار ما خاصمت الانفصاليين ، وخاصمت ، أيضاً ، أصحاب شعار الوحدة العربية هي طريق تحرير فلسطين مثلما خاصمت اصحاب الشعار المغاير : التحرير طريق الوحدة ، وتبنيت الرأي الذي يقول إن الوحدة والتحرير عمليتان متكاملتان وان العلاقة بينهما ديالكتيكية . ولكني هاجمت اصحاب هذا الرأي بدعوى انهم لا يتقنون التصرف على أساسه . وشنّعت على الذين يروجون لفكرة المستبد العادل ويرون ان عبد الناصر هو هذا المستبد العادل ، مثلما شنّعت ، أيضاً ، على الذين يتصورون الديمقراطية انفلاتاً لا تقيده روابط ولا تحدده حدود . وتبنيت الرأي الذي يقوم على أساس ان الديمقراطية مرتبطة بمدى التطور الاجتماعي ، وان شنّعت على اصحابه بأنه لا يجيدون قراءة مجريات هذا التطور واستخلاص مدلولاته . وكنت أجدني في خصومة مع الذين يدعون لاستقلال العمل الفلسطيني عن العمل العربي والآخرين الذين يطالبون بذوبان الوطني الفلسطيني في القومي العربي لاتبنى الموقف الذي يرى

أصحابه ان على الفلسطينيين ان يتولوا زِمام المبادرة في عملية تحرير وطنهم دون ان يعني هذا ان العرب الآخرين مُعْفون من أعباء العملية . وقد تتصور بهذا أني كنت انساناً وسطياً أو واحداً من الذين يولّفون بين الأفكار المتباينة ، إلا أني كنت في واقع الأمر أقلّ شبهاً بالوسطيين مما انا بالمتطرفين ، بل اني كنت ، بمعنى من المعاني ، متطرفاً ، اتحمس للفكرة التي احملها اشدّ الحماس وآبى ان أقرّ بصواب غيرها واستقتل في سبيل تعميمها او قل فرضها على الآخرين . وعليّ أن أقرّ بأن سلوكي في هذا المجال لم يكن يتسم بالحدّة وحدها ، بل بالفظاظة ، أيضاً . ومن اسوأ مظاهر هذا السلوك ان نفور الآخرين من طريقتي في عرض ما أومن به ما كان يحنقني ، بل كان ، في أغلب الأحيان ، يستهويني لأني استدل منه على اني شخص متميز واقارن نفسي بأصحاب الدعوات الكبيرة في التاريخ من الذين نفر الناس من دعواتهم في البداية ثم استجابوا لها بعد ذلك ، وأمنّي نفسي بأن مَنْ لا يفهمني اليوم سوف يفهمني غداً ويقرّ بألمعيّتي!

وما أن كانت ساعات المساء الاولى تنقضي ، حتى يكون الجدل قد أمضّ كل المشتركين فيه ، اتعبهم ، وذلك ، في الغالب ، دون ان يتوصلوا الى التفاهم النهائي حول أي شيء . عندها ، كنّا نتفرق الى جماعات تضم كلٍ واحدة منها الأصحاب المتجانسين . وحين يتوفر طقس ملائم ، وخصوصاً في الأماسي الدافئة ، كانت جماعتنا تتوجه من مقر الفرع سيراً على الأقدام الى ساحة الأمويين . هناك ، في زاوية الساحة من الناحية المقابلة لمبنى وزارة الدفاع ، أقام رجل اسمه أبو أحمد ما يشبه مقهى رصيفياً . وكان هذا المقهى يضمّ دكة خشبية ، يضع ابو احمد عليها ما يلزم لإعداد الشاي والقهوة ، وينثر حولها كراسي متواضعة . وكان رواد هذا المقهى اصنافاً من الناس الذين يشغلهم شأن ما عن النومِ المبكر فيجيئون الى المكان يستروحون النسائم المنعشة ويقضون الوقت بأقلّ كلفة . كان بين رواد هذا المقهى امثالنا من المهمومين بالسياسة والشؤون العامة ، كما كان منهم باحثون عن مكان منعزل يدخنون فيه ما لا يستطيعون تدخينه في الأماكن العامة . وكانت جماعتنا تتحلق في ركن من الرصيف يبعدها عن

صخب الحشاشين ويهيىء لها أن تتداول ما يطيب لها من الأحاديث بعيداً عن أعين الفضوليين والمراقبين وآذانهم . وقد الف ابو احمد ان يخصّ جماعتنا بمعاملة متميزة . فالرجل الذي الجأه افتقاره لرأسمال الى هذا النوع من الترزق وجعله مضطراً لأن يغض النظر عما يفعله بعض الزوار بما هو مخالف للقانون كان يجد في تردد جماعة المتعلمين على مقهاه ما يضفي على المكان الاحترام الذي يفتقر إليه بدونهم ، فكان يبذل قصارى جهده كي لا يزعج خلوتنا أي مزعج ، فيذبّ عنا المتطفلين ، وينبهنا الى وجود المخبرين حين يؤمّ أحدهم المكان ، ولا يلح علينا لتكرار طلبات الشاي والقهوة حين نجلس ساعات مديدة دون أن يطلب الواحد منّا سوى كوب واحد . وكان أبو أحمد ، نفسه ، لا يجيء الى ركننا إلا حين نطلبه نحن ، ولا يذكرنا بضرورة دفع الحساب الا حين نبادر نحن إلى ذلك ، ولا يحملنا على مغادرة المكان حتى لو استمرت قعدتنا فيه الى وقت متأخر . وعلى كثرة ما ترددنا على هذا المكان ، لم نعرف عن الرجل الا اسمه ، أما هو فلم يبد عليه انه معني حتى بمعرفة أسمائنا . وكان في هذا كله ما جعل مقهى الرصيف محط راحتنا المسائية كل يوم ، كلّما أسعف الطقس .

أما حين لا يكون الطقس مسعفاً ، أو حين يحول طارىء دون توجهنا الى الساحة التي تقوم فيها دار الاذاعة والتلفزيون بجانب وزارة الدفاع ، كأن تكون هناك اضطرابات ساخنة في البلد او استنفارات عسكرية ، فكنا نلتقي في منزل واحد منّا ، وغالباً ما يكون ذلك منزل محمد بصل ، في بستان الحجر . هناك ، كان محمد وأهله يوفرون لنا جواً طيباً للسهر ، كما كان بإمكان بعض الصديقات اللواتي يترددن في الذهاب الى مقهى الرصيف ان ينضممن الى السهرة . وفي سهرات المنزل ، كان الاهتمام بالشؤون الثقافية يخترق اهتمامنا المزمن بالشأن السياسي . فكنا نستمع الى الموسيقى والأغاني ونقرأ الشعر ونتحاور حول ذلك كله . كان محمد يقتني كمية محترمة من الاسطوانات والأشرطة ، فكنا نتعرف عنده على عالم الموسيقى الكلاسيكية الذي نجهل عنه الكثير ، وكان هو يترجم لنا الشروح المطبوعة على أغلفة الاسطوانات فنرانا وقد صرنا من المتبحرين في

معرفة غوامض هذا العالم الساحر. وكنّا نستمع خصوصاً الى اغاني فيروز والرحبانيين، نستعيد قديمهم، ونتابع جديدهم، ونتحمس لما يقومون به من تجديد للفلكلور ونرى فيه مستقبل الموسيقى العربية الذي نتوخاه. كما كان محمد حريصاً على اقتناء دواوين الشعراء المعاصرين، وخصوصاً الحديثين منهم. وكان يجتذبنا السياسي من شعر عمر ابو ريشة، والغزلي من شعر نزار قباني. أما بدر شاكر السيّاب فصار الساحر الذي يهيمن على جلساتنا الثقافية هذه فيطلق اخيلتنا على أمدائها الواسعة فنستشرف شواطىء الخليج ونتمايل مع النخيل في بساتين العراق، ونهيم مع الغيوم وننشط لإيقاع المطر ونستحضر جيكور وغوامضها ولا ينتهي إعجابنا بهذا كلّه. وكنّا في هذه الجلسات نتداول آخر ما ينتجه الشعراء البعثيون، فنثور مع ثوران يوسف الخطيب، ونحلق مع سليمان العيسى في اجواء الوطن الكبير، ونطرب لايقاعات احمد عبد المعطي حجازي وهو يحثّ الثوّار على ان لا يترددوا في الدوس فوق وجوه احبائهم على ان يذكروهم بعد النصر، حين لا يكون من ذلك بدّ. وفي غضون ذلك، كنّا نتمتع بالضيافة غير المهملة التي توفرها لنا سيّدة الدار، ام احمد، او ام حميد كما الفنا أن نناديها. كانت هذه المرأة التي مات زوجها قبل سنوات والتي ترعى اسرة لها هذا العدد الكبير من البنات والأبناء لا تتوقف عن العمل في المنزل، لا في النهار ولا في الليل. وكان لضيوف محمد منزلة خاصة في قلب الأم، فهي تخصهم بالمودة وتفرح حين تمتعهم بأجود ما تعدّ من مأكولات وتغض النظر عن هذا الكحول الذي حرّمه الله والذي يشربونه بحضورها هي المؤمنة. ولا شك في أن أم حميد كانت تدرك ان لابنها واصحابه شأنهم الذي يميزهم عن اللاهين من مجايليهم، شأناً يشبه في يقينها أن يكون رسالة عليا غامضة يتولونها هم ويعرفونها وإن كانت هي نفسها لا تعرف ابعادها. وكانت أم حميد تدرك تميز ابنها بالذات وسط هؤلاء المتميزين الذين يؤمّون داره فيزيدها هذا إعجاباً بالابن المتمتع بالمكانة الخاصة كما يزيدها حرصاً على الاحتفاظ باصحابه حوله وتوفير كل ما تقدر على توفيره مما يجتذبهم ويسعدهم. وكان في هذا شيء مما يرضي كل

واحد منّا ويوفر له التعويض الملائم عن شيء افتقده او يفتقده في محيطه العائلي . ولذا ، فقد محضنا ام حميد مودة خاصة وانطبع اسمها وحضورها في ذاكرة كل واحد منا ووجدانه . وعندما صدرت الترجمة العربية لكتاب «الأم» لمكسيم غوركي وقرأناها ، تذكرنا ام حميد وقارنّاها بأم غوركي الطيبة ، الحادبة ، الباسلة ، التي نذرت نفسها ووقتها لخدمة الثوار حتى قبل ان تتعرف على طبيعة قضيتهم .

شيء آخر مهم كنّا نفعله في لقاءاتنا المسائية ، وذلك هو تبادل الآراء والمعلومات حول الكتب التي نقرأها ، وتبادل الكتب ذاتها ثم مناقشة محتوياتها بعد أن نقرأها . لقد شجعني هذا على التوجه الى حقل جديد عليّ في المطالعة ، فانصرفت الى قراءة الكتب السياسية والفكرية . كنت أشتري من هذه الكتب ما أقدر على شرائه ، وأستعير غيرها من مكتبة محمد العامرة بهذا النوع من الكتب او من مكتبات الاصدقاء الآخرين ، والتهمها التهاماً . كان من الطبيعي ، وأنا في اول عهدي بعضوية حزب قومي ، ان اهتم بقراءة كتب المؤلفين القوميين . وقد قرأت من هذه ، بالفعل ، الكثير ، حتى كتب زكي الارسوزي ذات الصبغة القومية المتعالية والمثقلة بالفذلكات اللغوية الجافة قرأتها . ثم عرفت ، بتشجيع من زملاء اللقاءات ، وأخصهم محمد ، الكتب الماركسية ؛ واتذكر ان اول ما قرأته منها ، أو ما بقي في ذاكرتي مما قرأته ، هو كتاب كارل ماركس المتميز «١٨ بروميير» الذي استهواني فألفت أن اعيد قراءته كلما وجدتني بازاء أحوال عامة مضطربة ومتردية . اما لينين ، فكان اول ما قرأته له هو الكتاب الذي دفع محمد اليّ به ، وهو كتاب « من هم أصدقاء الشعب» . وقد صرت ، بعد ذلك ، ابحث عن كتب لينين فلا أقرأها فحسب ، بل أخصص أوقاتاً انصرف فيها الى دراستها ثم أدلّ على الأقران بترديد ما استخلصه لنفسي من مضامينها .

في بعض اللقاءات ، كنّا نستضيف زواراً طارئين ، وغالباً ما يكون هؤلاء من قادة الحزب ، أو كتّاباً ، او فنانين من أقطار عربية متعددة قدموا الى دمشق لشأن او لآخر ، او من المحاضرين في شتى الشؤون الذين يستضيفهم

الفرع للتحدث أمام أعضائه . بوجود هؤلاء ، كان الحديث يتركز حول الشأن الذي يختص به كل واحد منهم . وقد كان وجودهم فرصة تتهيأ لي كي اشارك في حوارت معمّقة وأظهر أمام الحاضرين الشأو الذي قطعته في المطالعة والآراء التي أظن أني ابتكرتها وأني أدهش مستمعي بعرضها واكتسب إعجابهم . في مثل هذه اللقاءات ، تعرفت على قادة في ميادين السياسة والفكر ، من لبنان والاردن والعراق ومن السودان ومصر والمغرب العربي فتهيأ لي ان اراكم معلومات كثيرة وأوسّع دائرة معارفي ، في الوقت ذاته .

لقد هيأ لي هذا كلّه وضعاً يندر أن يتوفر لمن كان في مثل سني من الذين لم يخوضوا التجربة ذاتها . فقد أتيح لي ، وأنا ما ازال في السنوات الأولى من عقدي الثالث ، أن أعرف عددا كبيراً من صناع السياسة وقادة الفكر في البلد والبلدان العربية الأخرى وان اتابع مجرى الحركة الثقافية فيها . وصرت ، في هذه السن المبكرة ، جليساً لناس النخب ، وصار لي صدامات مع كثير منهم . ولم يكن أمراً قليل الشأن أن اجدني ، أنا المعلم الشاب الطالب في الجامعة الذي لم يتخرج بعد ، وقد صرت ذا دالة على نجم سياسي كصلاح البيطار أو شاعر مشهور كيوسف الخطيب ، أو أمين لسرّ القيادة القطرية كحمود الشوفي ، أو عضو متنفذ في القيادة في العراق كعلي صالح السعدي ، او أديب ذي اسم لامع كصدقي اسماعيل ، او قائد مغربي شعبيّ كبير كمحمد البصري أو عبد الرحمن اليوسفي ، أو رئيس محترم للاتحاد العام للعمال كخالد الحكيم . ولا كان قليلاً أن اعتاد على التصرف مع هؤلاء وامثالهم بندية واتعامل معهم دون تهيّب! لقد كان في هذا ما لا يمكن نكرانه من المزايا التي حظيت بها انا الشاب المتطلّع الى التميّز والمحتاج اليه تعويضاً عما عانيته من حرمان . غير أن هذا التميز ، على ايجابيته ، في بعض وجوهه ، اقترن ، في وجوهه الأخرى ، بتأثيرات ضارة تركت بصماتها على شخصيتي الى وقت مديد . فهذه الشخصية ، الحادة في الاساس ، اكتست بحدّة اضافية ، مبعثها هذا النوع من الغرور الذي لا يقر المسكون به بوجوده ، وصرت اتصرف مع مَنْ اعرف ومَنْ لا

اعرف من الناس بنوع من التعالي البغيض ، وأصرّ على ان يدرك هؤلاء اني اعرف ما يعرفون واكثر واحيط بما لا يحيطون به من اسرار وافتي بفتاوى قاطعة واتعصب لها حتى حين يكون جلسائي من كبار المختصين في الشأن الذي انتطح للافتاء فيه ، ثم لا اقيم وزناً لما يشعر الآخرون به ازائي . وكان مما يزيد في غروري المستبطن ، وبالتالي في غلظة تصرفاتي ، اني كثيراً ما جهرت بفتاوى يتضح لي ولغيري انها صائبة ، في مواجهة فتاوى يدلي بها ذوو مقامات رفيعة ويتضح انها خاطئة .

في ذلك الوقت ، توثقت معرفتي باثنين من رفاق التنظيم البعثي ، فصار لكل منهما تأثير على مجرى حياتي .

أول الاثنين هو نافع ع . أُحجم عن ذكر اسمه الصريح لأن أحواله تبدلت كلية ولم أعد أعرف شيئاً عنه ، وقد يسوؤه أن أذكر ، الآن ، ما كان من أمره في تلك الأوقات . ينحدر نافع من أسرة كان أفرادها عبيداً عند بعض الأسياد الفلسطينيين ، في العهد العثماني ، وظلوا كذلك الى أن حررتهم القوانين من العبودية دون أن تحررهم من الفقر . وقد جاهد أبو نافع جهاداً يصعب وصف قسوته كي يوفر لهذا الابن فرصة التعليم . وكان الابن ، كما ينبغي أن يقال ، نابهاً ، كما كان مجتهداً ، فاستطاع أن يجتاز مرحلة التعليم الثانوي بنجاح ويحصل على درجة متفوقة . وفي غضون ذلك ، اجتذب التنظيم السري لحزب البعث في الضفة الغربية التلميذ المتفوق . وما أن ظفر هذا التلميذ بالشهادة الثانوية حتى كان قد صار واحداً من نشطاء هذا التنظيم في الحقل المدرسيّ . وقد عمل نافع لبعض الوقت مدرساً في احدى مدارس الضفة الغربية ، ثم اشتد توقه الى مواصلة التعليم ، فغامر بالمجيء الى دمشق منذ صار التعليم في جامعتها مجانياً ، وأمل في ان يجد في دمشق عملاً يمكنه من الانفاق على نفسه خلال السنوات الاربع التي سيمضيها في قسم اللغة العربية في كلية الآداب . وتميزت شخصية هذا الفتى بجاذبية خاصة جعلته محبباً لدى كل مَنْ عرفه . وكان في قامة نافع الرشيقة وتقاطيع وجهه المتسقة وسواد لونه الصافي صفاء مدهشاً وصوته المعجون بالمودة وعينيه المشعتين بالذكاء

والتفهم ما يعزز الجاذبية التي يتمتع بها ويجعل له حضوراً قوياً في اي مجلس ينضم إليه . وكان نافع ، الى هذا ، جمّ التهذيب ، دون تصنع ، ظاهر المرح ، دون خفة ، سريع المبادرة الى خدمة الآخرين والاهتمام بشؤونهم ، دون تبذل . وقد تعود نافع الاقتصاد في كل شيء ؛ فهو يقوم بما ينبغي عمله دون افراط ، ويقول ما يستلزم الموقف قوله دون امعان في الثرثرة ، يستوي في ذلك ان يتناول حديثه شؤوناً خاصة أو شؤوناً عامة . وكان الفتى كتوماً بمقدار ما كان أميناً ، وذلك دون أن يكون متزمتاً ؛ وبين جميع مَنْ عرفتُ ، كان نافع أصلحهم للائتمان على الأسرار واقدرهم على صيانتها . أما حين يتعلق الأمر بالإصغاء فإن نافع كان مستمعاً صبوراً ، فضلاً عن أنه متفهم ؛ وكان فيه هذا الشيء الخاص الذي يتحلى به عدد قليل من الناس فقط ، والذي يشجعك على ان تبوح له بما تختزن من هموم فلا تحسّ بالحرج ، فيخفف عنك بمجرد اصغائه إليك ومواساته لك ، او يشير عليك بما قد يزيل أسباب المعاناة . وعلى نضوب موارده المالية وعوزه الشديد ، كان نافع أنوفاً وكانت انفته تدفعه الى اخفاء ضائقته ؛ فقد يمضي اليوم ، أو الأيام ، دون قرش في جيبه ودون أن يظفر بوجبة ملائمة ، فلا يشكو ولا يظهر عليه أن لديه ما يشكو منه . جلب نافع معه من الضفة بذلة واحدة وبنطالين وعدداً قليلاً من القمصان وحذاء واحداً يسعى به في الصيف والشتاء . بالرغم من ذلك ، ما كانت العين تقع على نافع في اي وقت من الاوقات إلا وملابسه في اتم نظافتها وأناقتها ، كان يغسلها ويكويها بنفسه ولا يضنّ بالوقت اللازم لابقائها صالحة . وبالإجمال ، كان في نافع ، في سلوكه وطباعه ، الكثير مما افتقده في نفسي .

عندما تعرفت على نافع ، كان قد خسر منذ مدة عمل وكيل معلم وتعذر عليه الحصول على عمل آخر واستنفد مدخراته وساءت احواله مما اقتضى ان يهتم التنظيم الحزبي بشأنه . وكان هذا التنظيم افقر من أن يعيل نافع وان اظهر الجميع حرصهم على ان يتمكن هذا العضو النشيط من متابعة تعليمه في الجامعة . وقد تمكن التنظيم من أن يوفر لنافع بعض الدعم شهراً وآخر دون ان يدبر له حلاً دائماً . في غضون ذلك ، توثقت

علاقتي بنافع واجتذبتني اليه مزاياه العديدة ، ثم حدث ان قررت ، من جانبي ، ان اترك الحجرة التي اقيم فيها عند ملفينا . وكما سبق ان رويت لك ، فعلت هذا لأن تدخل العجوز في شؤوني الشخصية ازداد حتى شكل قيداً على حركتي ولأن اقامتي في حيّ القصور كانت تبعدني عن مراكز النشاطات المتعددة التي اتولاها . وهكذا ، توجب أن أبحث عن سكن جديد اقرب الى هذه المراكز . هنا ، اقترح محمد بصل ، المهتم بشأن نافع بحكم صداقته له وبحكم مسؤوليته التنظيمية ، أيضاً ، ان أشرك نافع في سكني الجديد . كان لدي دخل منتظم هو راتبي من الاونروا ، وكان اهلي قد جددوا رفضهم أي اسهام مني في ميزانية الاسرة ، فكنت ، اذن ، قادراً على مساعدة هذا الصديق ، دون عناء . وقد اقتضى اقتراح محمد ان أتولى انا دفع اجرة المسكن وما يقترن به من نفقات اخرى فيتمكن نافع من متابعة الدراسة دون ان اتكلف انا تضحية لا اقدر عليها . ولما كان نافع شديد الحساسية ازاء الإثقال على الآخرين فقد تواطأت مع محمد على ايهام نافع بأن التنظيم هو الذي يدفع حصته من نفقات سكننا المشترك .

سكنّا ، نافع وأنا ، في منزل في حيّ الشعلان غير بعيد من حديقة السبكي ، وبهذا أقمت في نقطة تتوسط المسافات بين مقرّ الفرع والمدرسة التي اعمل فيها والجامعة . كان المنزل من الطراز القديم وهو مكون من طابقين صغيرين . وكان اصحاب المنزل يشغلون طابقه الأول ويؤجرون ثلاث حجرات يضمها الطابق الثاني . وقد شغلت مع نافع أكبر هذه الحجرات ، وكان رفيق بعثي قد شغل حجرة قبلنا ، وهو الذي دلّنا على المنزل ، واستدرجنا رفيقاً آخر ، اردنياً ، لاستئجار الحجرة الثالثة ، فاقفلنا الطابق على ما يفترض أن يحتويه من أسرار الحزب . هنا ، اختلف الأمر عن منزل ملفينا . فقد وجدت نفسي مقيماً مع اسرة كبيرة العدد كثيرة الصخب . كان أبو الياس ربُّ هذه الأسرة شرطياً أمضى في الخدمة اربعين سنة متصلة قبل ان يتقاعد . وقد تزوج أبو الياس في شبابه امرأة أنجبت نصف دزينة من البنات والبنين . وبعد وفاة الزوجة الاولى ، تزوج ابو الياس ثانية وصار أولاده تسعة . ولم يكن للشرطي من مورد يعيل به هذه الأسرة

الكبيرة الا راتبه التقاعدي الضئيل وأجرة الحجرات الثلاث. وكان هذا الرجل الذي شهد في حياته سنين صاخبة قد انتهى الى استمراء السكينة ولم يعد له مما يشغل باله سوى انتظار النهاية، فيما أوكل شؤون المنزل والاولاد الى زوجته أم جورج. وكانت أم جورج هذه على النقيض من زوجها في كل شيء إلا في حبّها له. كانت الزوجة التي تصغر زوجها بما لا يقلّ عن عشرين سنة شعلة دائمة الاتقاد، تصحو مع أول الضوء فتحضر ما يحتاجه الاولاد للتوجه الى مدارسهم ثم تهيىء النرجيلة لزوجها وترتب قعدته عند مدخل المنزل. وحين يخلو المنزل من الاولاد ويستسلم أبو الياس لدخان النرجيلة، كانت ام جورج تجد الوقت لاتمام أعمال المنزل الكثيرة، تنظف حجرات الطابق الثاني ثم تنصرف الى مطبخها في الطابق الأول فلا ينتصف النهار إلا وقد أنجز كل شيء على أحسن ما يرام وتوشح المنزل، أسفله وعاليه، بالنظافة. عندها، يجيء وقت الاعمال الأخرى، الغسيل، ورفو الملابس وكيها وما الى ذلك مما تنجزه ام جورج قبل عودة الاولاد من المدارس. وفي الأماسي، تشرف أم جورج بنفسها على دروس الأولاد وتتأكد من اتمامهم للواجبات المدرسية وحفظهم للدروس. كل هذا تؤديه ام جورج، وتكرر أداءه، يومياً، دون ان تتذمر أو تفقد مرحها أو يبهت اهتمامها بحاجات زوجها ومزاجه، ودون ان تضايق أياً من مستأجري الحجرات.

وقد وجد نافع الوسيلة الأنجع والأكثر ملاءمة لطبعه لإقامة أحسن العلاقات مع أهل المنزل، اذ تطوّع بمساعدة الاولاد في دروسهم واجتذبني للمشاركة في هذه المهمة، فاسعد هذا أم جورج سعادة لا حدود لها، وحملها على أن تضاعف الاهتمام بحجرتنا وتخصنا، بين وقت وآخر، بشيء من الأطباق التي تعدها، ولا تني عن الإشادة بأريحيتنا وطيب أخلاقنا.

ولأمر ما، كان ابو الياس، الذي لا تستهويه السياسة عادة، مولعاً بعبد الناصر، حتى لقد اطلق اسم جمال على واحدة من بناته بعد ان طال انتظاره لذكر يسميه بهذا الاسم. لم يكن هذا تعصباً من الشرطي المتقاعد

لأحد ضد أحد ، ولا انحيازاً لجهة ضد أخرى ، ولا انجذاباً الى منهج ضد سواه ، بل كان ، كما يقول ابو الياس نفسه ، حبّاً خالصاً للقائد الجريء الذي عمل على أن يرفع رأس الشعب عالياً . وحين كان صالون المنزل الذي هو مدخله ، أيضاً ، يضمنا جميعاً ونحن ندرّس الاولاد ، كان أبو الياس يتركنا لحالنا ويجلس مع نرجليته بجانب الراديو ويلتقط نشرات الاخبار ، وما كان يهمه من هذه إلا الأخبار المتعلقة بعبد الناصر ، واغلب الظن انه ما كان يستمع الى غيرها . وكثيراً ما حاولنا أن نستدرج هذا المتعلق بعبد الناصر الى المناقشة مؤملين أن نستقصي سر هذا التعلق ، فلم ننجح في اخراجه عن صمته . وكل ما أمكن أن نسمعه من آراء الرجل عبارة ألف أن يرددها لنفسه بعد استماعه لخبر عن عبد الناصر : «اذا لم يفلح هو فلن يفلح زعيم غيره» .

مصاحبتي لنافع أفادتني في مجالات عدة . فقد نمّى نافع لدي عادات الاهتمام بنظافة ملابسي واناقتها ، انا الذي كنت اعتمد على ملفينا ثم صرت ، بعدها ، شديد الاهمال لما يتعلق بالمظهر الخارجي . واستفدت استفادة عظيمة من قدرة نافع الخارقة على تنظيم الوقت ، هو الذي يعرف كيف يؤدي التزاماته الكثيرة بانتظام ودون تداخل . أما الفائدة ، او الفوائد ، الأعمق غوراً والأشد تأثيراً ، فجنيتها من احاديث نافع عن الضفة الغربية وناسها . وكان لدى نافع ، من هذه الناحية ، معين لا ينضب من الخبرات والمعارف . وقد اختزن سليل أسرة العبيد كنوزاً من الصور والوقائع والحكايات . وكان لدينا دائماً أوقات الاصباح التي لا يتوجب أن نهرول فيها الى العمل او الجامعة والأماسي المتأخرة التي تجمعنا قبل الانصراف الى النوم . فكنت استمع من نافع الى ما يوسع اطلاعي على أحوال الشعب الذي انتمي اليه والذي ابعدتني عنه دروب المنفى الإجبارية . وكان لسان صديقي ، الذي هو في العادة قليل الكلام ، ينطلق ببراعة ، ملبياً حاجتي للتعرف على أدق التفاصيل عن الحياة في فلسطين . وعبر أحاديث نافع ، عرفت عن شؤون سكان الضفة ، اللاجئين والمقيمين ، أكثر مما عرفت عبر أي مصدر آخر ، وأحطت بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية

والثقافية ، كما أحطت بدقائق الشؤون السياسية وما طرأ عليها من تطورات منذ اللجوء . وكان في ما يحكيه نافع شيء مختلف عما أحفظه من حكايا جدّي عبد المجيد . صحيح ان الجد حكى لنا الكثير وأمعن في تصوير الدقائق والتفاصيل ، الا ان حكايا الجد تلونت ، في الغالب ، برغبته في توجيه ولاءاتنا ومشاعرنا نحو هذا أو ضد ذاك ، وقد شاء الجدّ عبر حكاياه أن يبصّرنا بما ينبغي ان يكون عليه سلوكنا ومواقفنا . أما نافع ، بعلمانيته الراسخة وبصيرته النقادة ، فكان يقدم وصفة لما هو قائم بهدف تعميق معرفتي به ، وكان يخضع مشاهداته للنقد المتعمق فيمتّن ادواتي النقدية ، في الوقت ذاته . وقد تميّز نافع بشدة عنايته بالشعر الفلسطيني ، وهو يعرف المشاهير من الشعراء مثلما يعرف المغمورين ، ويحفظ تراجم حيواتهم والأدوار التي قاموا بها في الساحة الثقافية والساحة الوطنية ، كما يحفظ كمّاً هائلاً من انتاج الجميع . ومع نافع ، اتيح لي أن أعرف أشعار مطلق عبد الخالق وحسن البحيري وعبد الرحيم محمود وابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» وفدوى طوقان ومعين بسيسو وسلمى الخضرا الجيوسي وغيرهم من شعراء فلسطين ، مَنْ رحل منهم عن دنيانا وتمّت حكايته ومن لا يزال فيها وما تزال حكايته مفتوحة . وكان نافع متذوقاً للشعر العامودي دون ان يفتقر الى الذائقة التي تستطيب الجيّد من الشعر الحديث . وباهتمامه بالشأن السياسي والاجتماعي وعنايته بمتابعة التفاصيل في هذا المجال ، نبهني نافع الى ضرورة الاهتمام بدور كل شاعر في الحياة العامة وتأثيره في المجتمع . وكان نافع مفتوناً بعبد الرحيم محمود ، يكبر فيه دوره في الثورة وتضحيته بحياته في سبيل القضية الوطنية . وقد حملتني حكايات نافع عن هذا الشاعر على محبته قبل أن أكوّن رأيي حول أهمية شعره ذاته .

لقد أمضيت بصحبة نافع في سكننا المشترك سنه بكاملها ، وكانت صحبة لا تنسى .

والثاني ، بين الاثنين اللذين أحدثك عنهما ، كان أميل صبيح . وقد توثقت علاقتي به منذ ترفعت في الحزب الى مرتبة العضو العامل وصار هو

مسؤولاً عن الحلقة التي انضممت إليها . وقد سبق لك ان عرفت ان اميل قدم الى دمشق من غزة . وكانت أسرة أميل قد نزحت من يافا في العام ١٩٤٨ ، حين كان اميل ما يزال صبياً في مثل عمري ، وتوجهت الى المدينة الفلسطينية الجنوبية . في يافا ، كان أبو اميل نجاراً . وبعد اللجوء ، تسنى للنجار ، الذي ضمت أسرته ستَ بنات وابناً واحداً هو إميل ، حظ طيّب ، فتمكن من أن يعمل ويعيل أسرته . ثم انهت كبرى البنات تعليمها الثانوي وظفرت بوظيفة معلمة في وكالة الغوث ، ولم تلبث ان تبعتها بنت أخرى ظفرت بوظيفة سكرتيرة . وتمكنت الاسرة من اتاحة الفرصة أمام الصبي الوحيد فيها كي يتابع الدراسة الجامعية . وقد واءم التوجه الى دمشق الميل السياسي لإميل الذي كان قد انتسب الى حزب البعث وهو تلميذ في المدرسة الثانوية ، ومن هو البعثي الذي لا تهفو نفسه الى دمشق؟

الحلقة التي رأسها إميل ضمتني أنا وعبد الله الصباح «من دمشق الى حمص . . .» ، وثلاثة آخرين ، احدهم مراكشي ، هو مأمون العلوي والثاني اردني والثالث قطري . وقد أدى تقارب المفاهيم وزوايا النظر بيني وبين اميل الى تمتين صلتي به . ثم جاءت ازمة الانقسامات والصراعات الداخلية التي تعرض لها الحزب ، فوجدنا نفسينا ، أميل وأنا ، في صف واحد مندفعين بحميّة مشهودة في مواجهة الآخرين . وعزز صلتنا ، أكثر فأكثر ، كوننا نحن الاثنين ، فلسطينيين ، واتفاقنا في الرأي وكذلك في السعي من أجل إبراز الشخصية الفلسطينية وتشكيل منظمة خاصة بالأعضاء الفلسطينيين في الحزب . والواقع أن الظروف التي تبلورت فيها علاقتنا ببعضنا البعض اتاحت لي ولإميل ان نشكل ، مع آخرين ، شلّة متجانسة امتزجت فيها العلاقات الحزبية بعلاقات الصداقة مثلما امتزج في نشاطها ما هو عام بما هو شخصي وزالت كل أنواع الكلفة بين أفرادها .

لم تكن لإميل جاذبية نافع ، لا في المظهر ، ولا في الطباع ، ولا في ميادين المعرفة . الا ان اميل لم يخل من المزايا ؛ وقد تميز ، خصوصا ، بنظرته الواقعية ، العملية ، للأمور ، في وقت اتسم فيه معظم البعثيين من

مجايليه بالرومانسية . وعندما كان هؤلاء البعثيون أميل الى الشؤون النظرية والانشغال بعظائم الأمور وكبريات القضايا والتعفف عن الاستغراق في الامور الصغيرة ، تميز اميل بحرصه على الانشغال بالشؤون اليومية وقدرته على استقصاء أدق التفاصيل واشغال الآخرين بها ساعات وساعات كلّما اقتضى الأمر . وكان لاميل ، وهو الحريص على قواعد الانضباط ، لسان حاد في تناوله لأخطاء الآخرين وانتقاده لما لا يروقه من سلوكهم ايا كانت درجة صلتهم به . وكان اميل اكثرنا اهتماماً بالتنبه للهفوات الصغيرة ، واشدنا تشبثاً بضرورة معالجتها ؛ وكان من شأنه ، مثلاً ، أن يقضي أياماً عدة في متابعة رفيق واحد تأخر عن تسديد اشتراكه الشهري ، الى أن يجيء بهذا الاشتراك ، ثم يمضي وقتاً آخر وهو يشرح لمن يقع عليهم في مجالسه ضخامة الخطأ المترتب على التأخر واهمية المنجز الذي حققه هو حين ارغم المتأخر على الانصياع للواجب . وكانت سلاطة لسان إميل اكثر ما جذبني إليه ، أنا الذي كنت ابزّه في طول اللسان .

أما أخصّ ما نفعني به إميل فهو المعلومات التفصيلية عن الفلسطينيين في قطاع غزة . كانت صلتي الشخصية بالقطاع قد توقفت منذ مغادرتي له مع الأسرة ومجيئنا الى دمشق في صيف العام ١٩٤٩ . وكانت المعلومات التي تنشرها وسائل الإعلام المتيسرة لنا في سورية عن القطاع شحيحة جداً . اما الكتب التي تتناول شؤون القطاع فلم يكن قد صدر منها شيء يذكر . وقد شكل القطاع منذ انقطاع صلته ببقية ارض فلسطين ومع اقفال الحدود بينه وبين مصر ما يشبه الجيتو الكبير المغلق على مَنْ فيه . فكان افتقارنا الي المعرفة بشؤون القطاع شديداً ؛ وقد مثل إميل بالنسبة لي مصدراً حياً للمعلومات التي اتوق لمعرفتها .

لم تكن اهتمامات إميل بالشأن الثقافي كثيرة ، اما في الشأن السياسي فكان واسع الاطلاع ، وهذا ما مكنني من معرفة التطورات التي شهدها قطاع غزّة منذ ١٩٤٨ ، بأدق تفاصيلها في بعض الحالات . واتضح ان اميل ساهم ، بنفسه ، في انشطة المقاومة الشعبية في الفترة التي تعرض القطاع فيها للاحتلال الاسرائيلي ، في العام ١٩٥٦-١٩٥٧ . فتسنى لي ان

اعرف تجربة الجبهة الوطنية التي تكونت آنذاك وضمّت معظم القوى السياسية السرية وبضمنها البعثيون والشيوعيون . والواقع أن تأثر اميل بهذه التجربة التي انخرط فيها في مطلع شبابه كان عميقاً ، وكان بين الاسباب التي جعلت هذا البعثي القادم من غزة من مؤيدي الدعوة لإبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية في الحزب ومقاومة ذوبانها ذوباناً تاماً في الاطار العربي القومي .

وتصادف أن كان إميل قد تعرف على عدد من أقربائي في القطاع ، وكان من هؤلاء صديق حميم لاميل هو عبد الله الحوراني ، وكان عبد الله ، وهو يدير مدرسة في خان يونس ، قد انتسب لحزب البعث وغدا عضواً في قيادة الحزب في القطاع ثم انتهى الى أن صار أميناً لسرّ هذه القيادة . وتيسر لي ، بهذا ، أن أعرف من إميل ما يعرفه من أنباء آل الحوراني الذين لجأوا الى القطاع . ثم تيسر لي أن أحقق ، عبر إميل الذي يزور أهله في العطل الصيفية ، اول اتصال بأمي التي انفصلت عنها منذ عام ١٩٤٩ . وقد حقق هذا الاتصال فائدة فورية ، فأمي التي كان لها مراسلات متقطعة مع أخوالي في دمشق لم تعرف عني ، أنا ابنها ، الا ما يحكيه هؤلاء ، وقد صُوِّرتُ لها على أني الولد المشاكس ، ناكر الجميل ، الخارج على التقاليد ، المنصرف لمصاحبة الزعران ، الغارق في الموبقات ، فكان قلقها عليّ شديداً . فلما سافر اميل الى غزة وزار أمّي بناء على طلبي ليستقصي أحوالها ويحدثها عن احوالي ، فوجىء بطبيعة الأسئلة التي وجهتها إليه الأم الملتاعة وقباحة الصورة التي نقلت لها عنّي . ووجد اميل الفرصة ليتبسط في رواية ما يعرفه من تفاصيل وضعي . وقد حدثني اميل طويلاً عن مدى عنائه وهو يحاول اقناع أمي بأني شاب مستقيم . وقال اميل انه لم يفلح في تبديل الصورة الشائهة كليّة ، إلا أنه نجح في إثارة الشكوك في ذهن أمّي حول اعتقادها السابق بشأني ، وبقي عليه ان يتابع المحاولة في الزيارات التالية . شيء آخر حققه لي إميل ، فقد شكّل صلة وصل بيني وبين عبد الله الحوراني . والواقع اني حينما سمعت اسم عبد الله لاول مرة من اميل ، لم أعرف مَنْ هو المقصود ، بالضبط ، لأن بين

مجايليّ من آل الحوراني كثيرين يحملون هذا الاسم . فلما عاد أميل من سفرته الأولى ، حمل اليّ مزيداً من التفاصيل ، فعرفت أن الشخص المقصود هو عبد الله ، أصغر ابناء الحاج عبد الهادي ، أي الفتى الذي يكبرني بسنين قليلة والذي استشهد اخواه الاثنان معاً في عام ١٩٤٨ حين كانا مع جماعة من مجاهدي المسمية ذهبت لنجدة قرية بيت دراس التي هاجمها اليهود ثم اشتبكت مع قافلة عسكرية معادية . وكانت قصة استشهاد الأخوين معاً ، وقد سبق لي أن رويت لك تفاصيلها ، قد دخلت في موروث القرية بوصفها واحدة من اعظم مفاخرها ، وكان حضورها في ذهني قد بقي حيّاً مع توالي السنين وتبدل الأحوال ، فسرني جداً أن أجدد الصلة بأخ الشهيدين بعد مضيّ دزينة من السنين على افتراقنا ، كما سرني أن أعرف أن هذا الفتى اختار الطريق السياسي الذي اخترته أنا ، وتعزز اعتقادي بصواب اختياري . وقد رويت قصة بطولة آل عبد الهادي لاميل حين اتضح لي أنه لم يسمع بها ، متعمداً أن ازيد أعجابه بعبد الله ، قريبي ، هو المعجب به بدون هذه القصة .

ومع توثق علاقتي باميل ، وتوسع نشاطات التنظيم وبروز الحاجة لوجود مقرات له دون توفر المال لاستئجارها ، نبتت فكرة ان نستأجر ، اميل وأنا ، شقة مستقلة تكون مسكناً لنا ومقراً للتنظيم . ثم ازدادت اهمية هذه الفكرة منذ استجابت القيادة القطرية الجديدة لمطلب الأعضاء الفلسطينيين بأن تكون لهم منظمة حزبية خاصة بهم . تم ذلك ، على ما أتذكر ، في أواخر عام ١٩٦٢ ، أو أوائل ١٩٦٣ . وكانت الاستجابة لمطلبنا جزئية ، اذ ان القيادة لم تجرؤ على منحنا صفة المنظمة المستقلة خشية أن تتعرض لتهمة القطرية ، ولكنها وافقت على جمع بعثيي دمشق الفلسطينيين في فرقة واحدة وأتبعت هذه الفرقة لشعبة حيّ الميدان باعتباره اقرب احياء المدينة الى مخيم اليرموك . وهكذا ، صارت لنا فرقتنا دون ان نستقل عن التنظيم السوري ، وصار اميل الذي بقي مسؤولاً عن حلقتي عضواً في قيادة هذه الفرقة . واذ لم يعد نافع ع . بحاجة الى معونتي ، هو الذي تدبر أمر معيشته بنفسه ، فقد نفذنا الفكرة التي استحوذت علينا ، واستأجرنا أنا

وإميل شقة من ثلاث حجرات صغيرة في بناء حديث في شارع جديد، كان آنذاك قيد الانشاء، قريباً من جامع صلاح الدين في حيّ الأكراد، او ركن الدين وفق تسميته الجديدة. وتصادف أن محمد بصل انتقل بأسرته، في ذلك الوقت، إلى منزل في الشارع ذاته. وتقاسم منزل محمد الفسيح وشقتنا الصغيرة نشاطات العمل الحزبي وما يقترن بها. وتميزت شقتنا التي لا يعرفها إلا عدد محدود من الاصدقاء بأنها صارت مأوى نخفي فيه أشياء الحزب السرية وأعضاء الحزب الذين تشتد مطاردة أجهزة الأمن لهم. وفي هذا الوضع الجديد، أتيح لي أن أطلع على نشاطات الفرقة كلها وأعرف المزيد من أسرار الحزب. وكان سكني في هذه الشقة فرصة اخرى عززت ذلك الاقتران بين الشأن الشخصي والشأن العام في حياتي وخلطت الحدود بينهما.

تعاقبت الاضطرابات في عهد الانفصال في سورية بوتيرة سريعة، حتى ليمكن القول إن يوماً واحداً من أيام العهد الذي استغرق ثمانية عشر شهراً لم يشهد هدوءاً تاماً. كانت أسباب الاضطراب عديدة، وكذلك ساحاته. فالقوى التي تحالفت لفكّ وحدة مصر وسورية لم تكن متجانسة، والقوى التي تصدّت للانفصاليين لم تكن متجانسة، هي الأخرى. وهكذا شهدت البلاد، في وقت واحد، صراعات القوى داخل كل طرف مثلما شهدت صراعات الطرفين مع بعضهما البعض والتداخل المعقّد بين النوعين.

وكان على الانفصاليين، انسجاماً مع الذريعة التي اتخذوها لفكّ الوحدة، ان يعيدوا الحياة الديمقراطية الى سورية فيبيحوا الحرية للصحافة والنشاط الحزبيّ المتعدد والعمل النقابي. وقد فعلوا، حقاً، شيئاً من هذا، فجرت الانتخابات البرلمانية التي حدثتك عنها، وعاودت الأحزاب القديمة النشاط، وأخذت النقابات زمام المبادرة، وصدرت صحف كثيرة. غير أن

هذا ، حين يستمر الى النهاية ، كان من شأنه أن يطيح بالانفصاليين أنفسهم قبل أن يطيح بأي جهة أخرى ، لأنهم كانوا مبغوضين من الأغلبية . وهكذا ، اضطرب سلوك الانفصاليين في الحكم اضطرابا شديداً ، وجهر بعض هؤلاء بالدعوة الى التراجع عن الاجراءات الديمقراطية ، ومارس المتنفذون منهم ممارسات ديكتاتورية سافرة فازاحوا حكومات وجاءوا بغيرها ، وسجنوا رئيس الجمهورية المنتخب ، وحولّوا البرلمان الى مهزلة ثم جمّدوا عمله ، ووجهوا الجيش وقوى الأمن لقمع التحركات المعارضة ، وأطلقوا النار على المتظاهرين في الشوارع ، في المدن والريف ، فافقدهم هذا تأييد كثيرين ممن التفوا في البداية حولهم وناصروا حركتهم لسبب او لآخر ، وانتقل هؤلاء الى صفوف المعارضة فزادوها كثرة وإن زادوها بلبلة في الوقت ذاته .

وتوزع المعارضون الوحدويون بين ناصريين مقسمين على أحزاب ومنظمات وكتل عديدة ، كبيرة وصغيرة ، تطالب ، جميعها ، بعودة الوحدة فوراً وتختلف على الكثير مما عدا ذلك ، وبعثيين يحاولون عقلنة التيار الوحدوي ودفعه نحو المطالبة بتأسيس وحدة مدروسة فيما هم معرضون للهجمات من الأطراف الأخرى كافة ، الانفصالية والناصرية . وضمت المعارضة ناساً لم يجعلوا مسألة عودة الوحدة بين مشاغلهم ، وقدظنوا أن بإمكانهم تخطّي هذه المسألة والدفع باتجاه إعادة بناء حياة سياسية متقدمة في سورية . وكان من بين هؤلاء ، الشيوعيون والكثير من المتمركسين القدماء والجدد . هؤلاء دفعتهم طبيعتهم الى معارضة سياسات حكم الانفصال الداخلية ومقاومة تطاوله على المكتسبات المتحققة للجمهور في عهد الوحدة ، فيما دفعتهم معارضتهم نظام عبد الناصر الى تأييد اجراءات الانفصاليين كلما تعلق الأمر بتعزيز انفصال سورية عن مصر .

وبمضي الوقت ، فقدت سلطة الانفصال هيبتها ، ليس بفعل معارضة المعارضين ، وحدهم ، بل بفعل الصراعات التي اتقدت في صفوف الانفصاليين أنفسهم والإجراءات العديدة القبيحة التي نجمت عن هذه الصراعات ، أيضاً . وازداد وضع الانفصاليين صعوبة حين لجأوا الى المسّ

بالمكتسبات المتحققة ، فهذا الأمر بالذات أسهم في تمزيق صفوفهم والجأ كثيرين من مؤيديهم الى الخندق المعارض . فالغاء التأميمات ، مثلاً ، ومحاولات تبديل قانون الاصلاح الزراعي وقوانين العمل ، وما الى ذلك من اجراءاتٍ كتّلت غالبية سكان البلاد ضد عهد الانفصال وعززت سمته بوصفه عهداً غير شعبي واشعلت موجات متلاحقة من النشاطات المعارضة ضده .

في معمعات الصراع المحتدم ، المتداخل ومتعدد الوجوه ، والآخذ بالاحتداد يوماً وراء يوم ، تبلورت على ساحة العمل السياسي اربعة تيارات رئيسة : الأول هو تيار انفصالي يدعمه المتنفذون في قيادة الجيش وكبار ملاك المصانع والارض وتؤيده شراذم من السياسيين والمثقفين الذين انبتّت جذورهم عن قوى نشأوا فيها في السابق وحملتهم نوازع وصولية صرفة على تأييد العهد القادم . والثاني تيار يؤيد الانفصال بدافع بغضه لنظام عبد الناصر ليس غير ، لكنه يرفض أن يعيد الانفصاليون الرجعيون البلاد الى الوراء ؛ وكان المنشقون عن حزب البعث ، الذين التفوا حول زعامة أكرم الحوراني وأمثاله ، وكذلك الشيوعيون ومَنْ يماثلهم هم أبرز ممثلي هذا التيار . والثالث تيار الناصريين الذين غدوت تعرف الكثير عن أحوالهم ، وهم الذين كانوا قادرين على إلهاب العواطف وحمل ناسهم على التظاهر والتصدي لإجراءات الانفصاليين وعاجزين عن تحويل تحركاتهم الى حركة منتظمة الايقاع في اتجاه يحقق هدفهم . اما التيار الرابع فهو الذي مثله حزب البعث وأنصاره ، فقد اتخذ الحزب سياسة متوازنة ، واضحة في رفضها للانفصال مثلما هي واضحة في موقفها من سلبيات عهد الوحدة ، وصريحة في دعوتها الى إعادة بناء الوحدة بخطوات مدروسة مثلما هي صريحة في تشبثها بمكتسبات عهد الوحدة . وبهذه السياسة وفي هديها ، أعاد الحزب بناء تنظيمه السابق واجتذب إليه غالبية البعثيين المدنيين والعسكريين كما اجتذب عناصر جديدة ، وشكل قوة حسنة التنظيم جيدة الإعداد واخذ يشقّ طريقه بثبات ليحتلّ في النهاية صدارة الساحة السياسية الفاعلة .

بكلمات أخرى : عارض الناصريون والبعثيون الانفصال ، كل منهم على طريقته . فتمكن الناصريون من الهيمنة على جمهور واسع غير محدد المعالم ، فكانوا قادرين على احداث الكثير من الصخب وتحقيق الحضور الواضح في أي مكان ، دون ان تكون لهم الفعالية التي تعادل هذا الحضور . واستقطب البعثيون نخبة من الوطنيين التقدميين ، وهؤلاء اهتموا بتنظيم أنفسهم بحيث يحقق نشاطهم الفعالية اللازمة لتوجيه الجمهور . واذا كان الناصريون قد شكلوا غالبية عددية ظاهرة بين الوحدويين فقد شكّل البعثيون أمتن القوى الفاعلة على كل صعيد . وبمضي الوقت ، تآكلت الأغلبية العددية ونبتت القوى المستندة الى أساس متين .

إذن ، رسم البعث ، في حينه ، طريقاً ، بدا لي انه الأوضح بين الطرق العديدة التي تسعى القوى السياسية لشقّها . وتجندت منظمات البعث للعمل ليل نهار لتوسيع الطريق وتعبيده . واعتاد ناس الحزب على تذوق المكاسب الصغيرة وتعلموا أن مراكمتها هي وحدها التي تؤدي الى الانجازات الكبيرة . كان بامكان الناصريين أن يلهبوا عواطف مخيم بحاله ويخرجوا ناسه في مظاهرة صاخبة ، دون ان يكون هذا في متناولنا نحن البعثيين . ولكننا كنّا نجد في تشكل خليّة جديدة لنا في المخيّم عملاً أبقى من المظاهرة واكثر فاعلية ، وكنّا نعد نجاحنا في تنظيم رحلة للطلاب أو إعداد ندوة للحوار الهادىء ، أو استقطاب مئة شخص للاستماع لمحاضرة مكاسب لا نترفع عن بذل اقصى الجهود من اجل الظفر بها . انطلق الناصريون من اعتقادهم بأن الجمهور السوري وحدوي وهو بالتالي معهم دون غيرهم ، وركنوا الى هذا الاعتقاد ، فأهملوا النشاطات الدؤوبة المثابرة التي تتوخى اقناع الناس وليس استخلاص قناعاتهم . أما التنظيم البعثي فانشغل بالعمل المثابر وتعميم القناعات وترسيخها . كان السباق بين الناصريين والبعثيين على اكتساب تأييد الجمهور اشبه بالسباق بين الأرنب والسلحفاة ، وانت تعرف مَنْ الذي فاز في النهاية! لا يعني هذا القول ان البعثيين سلكوا طريقاً صحيحة ، على الدوام ، أو أن الناصريين ضلوا الطريق التي اختاروا السير عليها ، اذ ما اكثر ما أخطأ البعثيون ، آنذاك ،

وفيما بعد ، وما أشدّ ما اندفع ناس منهم في الطرق المتعجلة او آثروا الركاكة في الفكر وفي العمل وما أكثر ما حقق الناصريون من نجاحات باهرة وما أكثر ما كان بينهم مناضلون دؤوبون ومثابرون وبعيدو النظر! إلا أن اجمال الوضعين ، وأنا اعرضهما بهذا الايجاز الشديد ، يظهر غلبة لمنهج بعينه هنا وغلبة لمنهج آخر هناك ، وهذا هو ما اردت قوله .

وقد يجدر ان أنوه ، هنا ، بالدور الذي لعبته جريدة «البعث» في هذا المجال . فقد أسهمت هذه الجريدة ، التي عاودت الصدور جريدة أسبوعية يرأس صلاح البيطار تحريرها ، في بلورة معالم الطريق الذي يشقه الحزب واجتذاب العديد من الناس للسير عليه . ولعلّي لا أبالغ ان قلت لك ان أعداداً كبيرة من المدنيين والعسكريين في البلاد كانت تنتظر موعد صدور العدد الجديد من الجريدة بتشوق كبير ثم تتشرب موادّه وتنصرف الى دراستها والتحاور بشأنها طيلة أيام الأسبوع . وقد شهدت بنفسي كيف تحول مقرّ الجريدة ، في وسط البلد ، خلف مقهى الحجاز ، الى ملتقى دائب النشاط يؤمه أصحاب الفعاليات السياسية والثقافية ويتداولون فيه شتى الشؤون . كنت دائب التردد على هذا المقر . وكان محمد بصل ، لصيق الصلة آنذاك بصلاح البيطار ، قد غدا في عداد هيئة التحرير ، في موقع يجعله اقرب إلى أن يكون نائباً لرئيس التحرير . ومحمد هو الذي اجتذبني ، في البداية ، الى المقر ، ثم ألفت زيارته ، وتعرفت فيه على عدد كبير آخر من نجوم السياسة والفكر ومسؤولي الحزب والأحزاب الأخرى . وكان محمد وغيره من المحررين الذين ألفوا وجودي بينهم يوكلون اليّ بعض المهام ، كاعادة كتابة مادة أو تصحيح لغتها وإيجاز مادة أخرى أو تطويع صياغتها لتخدم خط الحزب السياسي ، وكنت اسعد بهذا سعادة كبيرة .

وها أنا ذا أتذكر المرة التي قدمت فيها الى الجريدة مظاهرة ناصرية هدفها تدمير المقر . أراد هؤلاء المتظاهرون تدمير مقر جريدة الحزب احتجاجاً على مقال كتبه صلاح البيطار ودعا فيه الى الوحدة الاتحادية بدل الوحدة الاندماجية التي ينشدونها . آنذاك ، كنا في المقرّ حشداً كبيراً من البعثيين وانصارهم ، ورأينا المظاهرة وهي مقبلة من ناحية مقهى الحجاز ، ثم جاء من

أنبأنا بهدفها . وقد فاجأنا ان يستهدف الناصريون حلفاءهم على هذا النحو الذي لن يخدم إلا الانفصاليين ، وساءنا ذلك كثيراً ، وتحفزنا للاشتباك مع المتظاهرين واستخدمنا الهاتف أو أرسلنا المراسيل لاستدعاء جماعات البعثيين من مختلف أنحاء المدينة لنجدة جريدتهم . وعندما أحاطت المظاهرة بالمبنى الذي شغل المقر طابقه الثاني ، أدركنا من معاينة العدد القليل اننا قادرون على مقاومة المتظاهرين وتفريقهم بالقوة حتى قبل وصول النجدات ، وشرعنا بالتحرك للهبوط نحوهم . الا ان صلاح البيطار فاجأنا باصراره على التريث . خرج هذا القائد من حجرة مكتبه وسد باب الخروج بقامته ودعانا للتذرع بالصبر . يومها ، قال البيطار ان الناصريين حلفاء لنا ، فإن اخطأوا فلا يجوز ان نقابل الخطأ بمثله كما لا يجوز بأي حال من الأحوال ان ننجر الى الاشتباك معهم . وانتقى البيطار من الموجودين الذين عدهم الأعقل والأهدأ ، وكان منهم ، ممن لا ازال أتذكره ، عبد الكريم زهور والدكتور جمال الاتاسي ، وطلب منهم الهبوط الى الشارع ومحاورة المسؤولين عن المظاهرة ، فيما أمر الآخرين بالتزام الهدوء والكف حتى عن الرد على الهتافات المعادية . ومن مكتبه ، اجرى البيطار ما وجده مناسباً من الاتصالات الهاتفية مع القادة الناصريين وراح يحاورهم داعياً اياهم الى كفّ الاذى والحيلولة دون وقوع الاشتباك البغيض . وفي غضون ذلك ، وصلت جماعات النجدة تباعاً ، واختلط ناسها بالمتظاهرين ، وشهد الشارع جدلاً صاخباً بين انصار الوحدة الاتحادية المدروسة وانصار الوحدة الفورية الاندماجية . ثم انتهى الأمر كلّه بارتداد المتظاهرين دون ان يطال مقر الجريدة سوى صدى الهتافات المعادية وأحجار قليلة قذفها استفزازيون تعذرت السيطرة على عواطفهم .

اما الاشتباكات الفعلية ، في تلك الفترة ، فهي التي راحت تتوالى بين البعثيين والناصريين ، من جهة ، وأجهزة أمن السلطة حين تكون السلطة مسيطرة عليها ، من جهة أخرى . كان من شأن أي إجراء رجعي يتخذه الانفصاليون أن يستتبع قيام مظاهرات معارضة . وكانت المظاهرات العامة تقوم ، أيضاً ، في المناسبات المرتبطة بالذكريات الوطنية ، المبهجة او المحزنة ،

وما أكثرها! وهناك مظاهرات كانت تقوم بغير ما سبب ظاهر أو مباشر، مظاهرات يطلقها السخط المتراكم ويحفز عليها استعداد الجمهور الدائم للمواجهة. وقد أثّر ما كان يقع في الشارع على الجيش؛ صحيح أن قادة الجيش الانفصاليين سرّحوا وشرّدوا عدداً من ضباط الجيش الناصريين من مختلف الرتب وأن عهد الوحدة سبقهم الى تسريح عدد من الضباط البعثيين، غير أن هذا لم يعن أن الجيش خلا من هؤلاء، ولم يمنع ضباطاً آخرين من الانضمام الى هذا الفريق او ذاك. وانتقلت صراعات الشارع الى الجيش، وتواترت فيه حركات التمرد ومحاولات الانقلاب. ونجم عن هذا كلّه اعتقالات طالت كثيرين من المدنيين والعسكريين، ومحاكمات كثيرة تحولت الى منابر يستخدمها المتهمون للدعاية لبرامجهم السياسية. وتنوعت ردود فعل الحكام الانفصاليين، فكان منهم المتهيّب من المواجهة والحاثّ على التشدد في القمع والمتردد بين الحالتين. وانتهى الأمر بأن اكتظت السجون والمعتقلات بنشطاء المعارضين من كل لون، فالتقى في السجن الواحد، في الفترة الواحدة، بعثيون وناصريون وديمقراطيون مستقلون، مدنيون وعسكريون. وزاد هذا في تعميم القناعة العامة بأن عهد الانفصال ليس سوى عهد مؤقت.

وقد جعلت كثرة الاضطرابات وتواترها المتسارع الدراسة تضطرب في المدارس والجامعات. وتقصّد الناصريون تعطيل الدراسة في إطار مسعاهم للحيلولة دون استقرار الاوضاع وظناً منهم أن تعطيلها يقصّر عمر عهد الانفصال. وكان من بين أكثر هتافات الناصريين شيوعاً هذا الهتاف الذي يرددونه بإيقاع جذّاب: «لا دراسة ولا تدريس إلا بعودة الرئيس»، اي بعودة عبد الناصر. وما أكثر الايام التي لم يتوجه فيها احد الى المدارس او التي توقفت فيها الدراسة وانطلق التلاميذ الى الشوارع! أما الهتاف للوحدة والحرية فكان يتردد في كل مكان. وقد هيأت لي اضرابات المدارس أوقاتاً أطول للانصراف الى الشؤون العامة الأحب الى نفسي من التدريس. وفي تلك الفترة، كثر تواجدي في الجامعة حيث يتجمع الطلبة المنتمون لمختلف التيارات السياسية فيتحاورون وينظمون النشاطات. كما كثر تواجدي في

مقر الفرع الذي تحول الى قاعدة لعمل الطلاب الفلسطينيين من بعثيين وناصريين وغيرهم .

كان البعثيون قد فقدوا ، كما سبق لك أن عرفت ، أغلبيتهم في قيادة الفرع ، ولم يعد لهم من يمثلهم في هذه القيادة إلا أنا ، وذلك لصالح القوميين العرب . ولأن خسارة البعثيين وقعت عندما كانوا مشتتين ومشغولين بالصراعات الداخلية في حركتهم ، فإن انتظام الحياة الحزبية من جديد وانجلاء الصراع الداخلي عن إعادة اللحمة بين معظم البعثيين الفلسطينيين اوجبا أن ينصرف هؤلاء للعمل من أجل تعزيز مكانتهم في الفرع واستعادة الأغلبية في قيادته . وقد وُضعت من أجل تحقيق هذا الهدف خطة توجب عليّ في سياقها أن أعمل كل ما من شأنه أن يحرج القوميين العرب في قيادة الفرع ويظهرهم بمظهر الفاشلين . وقد اتبعت سلوكاً مماحكاً قوامه ارغام القوميين العرب الثمانية في الهيئة الإدارية للفرع على اتخاذ أي قرار بالتصويت ، أياً كانت درجة أهمية الموضوع المطروح للبحث ، حتى لو تعلق الامر بتنظيم مباراة في كرة الطاولة . كان هذا السلوك متعباً لي وللزملاء الثمانية ، ولكنه مكّن البعثيين من اظهار القوميين العرب بمظهر العاجز عن اقناع شخص واحد . وقد تنبه رئيس هيئتنا الإدارية ، داود رحمة ، الى ما نتوخاه من المماحكة ، فكان يعمد الى اطالة امد الحوار في الاجتماعات ، بأمل ان يقنعني فنتوصل الى القرار بالإجماع . وتنبهت انا الى ما يتوخاه الرئيس فكنت أرفض أن أقتنع! وأدى ذلك إلى أن تستمر اجتماعاتنا ، في بعض الاحيان ، حتى الصباح دون ان يصدر عنها الكثير مما هو مهم . وكنا نترقب موعد الانتخابات الجديدة ، فيما نواصل تسجيل النقاط ضد القوميين العرب ، وقد تعزز أملنا باستعادة الاغلبية . وواظب لطفي غنطوس على المجيء من القاهرة الى دمشق ، وكان يحثنا على الاهتمام باستعادة السيطرة على الفرع لكي تبقى للبعثيين الأغلبية في قيادة الاتحاد العام ، ويشاركنا في رسم الخطط اللازمة لتحقيق هذا الهدف .

في غضون ذلك ، بقي شيء ما ، قوي التأثير ، يجذبني الى الجورة

وناسها . فرحت استغل ما يتيسر من وقت لأزور المكان وأواصل حواراتي فيه مع رواده . كان صاحب الجورة ، ابو وليد ، يظهر تفهماً خاصاً لمواقف البعثيين ، دون ان يتخلى عن التصريح بأنه ناصري ، وكان من رأيه ان لا فرق بين البعثيين والناصريين إلا ما يحدثه اختلاف الأمزجة والتنافس على مواقع قيادة الشارع بين قادة الجانبين . وكان الرجل ، الذي يسكن أكرم الحوراني بجوار مصبغته ويتعامل معه بصفته زبوناً مهماً ، قد صار على صلة بجماعة أكرم . وقد أبدت الجماعة حرصاً خاصاً على اجتذاب الكوّا الفلسطيني . وكان من شأن هذا أن يفعل فعله في الرجل الذي يوليه زعيم كأكرم الحوراني عنايته الخاصة لو لم يكن إيمانه بالوحدة راسخاً ولو لم يكن الاذى الذي الحقته مواقف اكرم الحوراني بالوحدة والوحدويين شديد السفور . وقد ظل أبو وليد قادراً على مواجهة جماعة أكرم بمعارضته لهم وانتقاده لمسلكهم الانفصالي ، دون أن يثير سخطهم الشخصي عليه أو يدفعهم لقطع صلتهم به . وبحكم صلة ابي وليد بالجماعة ، كنت أجد في الجورة كل ما يصدر عنها من نشريات ، بما في ذلك النشرات الداخلية المعدّة لاطلاع أعضاء تنظيمهم ، وحدهم .

أما الحاج نجدت الذي لم يتبدل ودّه العميق لي ، فإن تواتر الاحداث السريع واضطرابها المتصل وتداخل المواقع الشديد فيها ، أفقده شيئاً من اتزان موقفه وشحذ نبرته في الجدل فصار أميلَ الى الحدّة . كان هذا الرجل على اطلاع واف على النشاط الذي يقوم به أخوه واصدقاؤه المؤيدون للانفصال وما يعدّونه من خطط ومؤامرات لاستغلال الظروف من اجل زيادة ثرواتهم وما يقومون به في هذا المجال من تهريب لأموالهم خارج البلاد وما يقترن بسلوكهم كله من مظاهر الفساد والافساد البغيضة ؛ وكان ، في الوقت ذاته ، يخشى أن تعود الوحدة فتختل علاقات سورية من جديد بالاردن والسعودية ودول الخليج الأخرى فتتجمد العلاقات التجارية مع هذه البلدان وتنسد أمامه ، هو ، من جديد فرص العمل الذي انفتحت أبوابه مرة أخرى بوقوع الانفصال . وكان الحاج ، في واقع الأمر ، موزع المشاعر بين احتقاره للانفصاليين وخشيته من عودة الوحدة . وهذا الإنسان

الذي تلونت حياته كثيراً وتراوحت بين استقرار لا يطول واضطراب يحمل إليه الفقر لم يكن قادراً على الثقة بأحد من السياسيين او بأي من الاحزاب . لم يأبه الحاج بدعوة حزب البعث الى الوحدة المشروطة ، وكان يجزم بأن البعث لو استلم الحكم فسوف يسلك كغيره من الاحزاب فيستأثر بالسلطة ويتقاسم أفراده منافعها او يتعاركون حولها دون أن يجلب للبلد افضل مما جلبه غيره . وكان هذا الصديق يظهر تفهماً متحفظاً لانجذابي ، أنا ، الى الحزب ولا يعترض على نشاطي ، لكنه ما فتئ يتنبأ لي بأني سأكتشف ، في يوم من الأيام ، صواب ما يقوله هو بشأن الحزب وسيردعني ضميري عن الاستمرار في الحماس له . اما الناصريون ، على مختلف تياراتهم ومنظماتهم ، فإن الحاج كان ضدهم جميعاً ، وكان لا يجيء على ذكر أي من هؤلاء الا مقرونا بالسخط . والحاج ، في موقفه من الناصريين ، كان يصدر من منطق خاص ، فهو يحترم عبد الناصر ويرى أن هذا الزعيم حاول أن يفعل الكثير لصالح العرب الا ان اتباعه هم الذين أفسدوا محاولاته وحولّوا البلاد إلى سجن تقمع فيه الحريات ومزرعة يتناهبون خيراتها مستغلين اسم الزعيم ومكانته الشعبية الكبيرة ومتسترين بها على انتهازيتهم وحقاراتهم . واذا كان الحاج قد صار اميل الى الحدّة في أحاديثه كلّها ، فإنه كان شديد الحدّة في حالتين ، حين يتحدث عن اخيه وجماعته أو حين يتحدث عن الناصريين . وكثيراً ما كان الحاج يختم حديثه عن أي من هؤلاء ببصقة ثم يلجأ الى علبة تبغه ويلفّ السيجارة وهو ظاهر الانفعال .

وحدهما ، مصطفى ومحمد ، البقالان الاخوان ، ظلاّ سعيدين بالانفصال سعادة يتفننان في اظهارها . وقد ألف هذان الدمشقيان ان يتناولا عبد الناصر بأقذع القول ويشنعا عليه وعلى مَنْ يواليه اقبح تشنيع . وكان هذان التاجران يصوّران الأمر وكأن شعب سورية كلّه كاره لعبد الناصر ، أما المظاهرات التي تنادي بعودة الوحدة أو تهتف لعبد الناصر فهي ، عندهما ، من صنع الفلسطينيين و«الفلح» ، أي الفلاحين ، مظهرين ، بهذا ، أنهما لا يحسبان الفلاحين في عداد شعب سورية . وإذا

جوبه أي من الأخوين بوقائع تدحض رأيهما ، اضطر الى التراجع واكتفى بالقول إن أهل دمشق ، كلهم ، ضد عبد الناصر ودمشق هي التي تمثل الوجه الحقيقي لسورية ومصالحها . وقد أمعن هذان البقالان في اظهار البغض لعبد الناصر والاستهانة بمشاعر المؤيدين له من رواد الجورة ، واستخفهما الانشراح لغياب الوحدة ، فلم يتورعا عن سلوك مسالك غريبة ومستفزّة . وأتذكر مرة توجّب فيها على أجير الجورة الناصري ان يحمل رزمة من الملابس المكوية الى اصحابها في منازلهم فمنعه انهمار المطر فأخذ يترقب لحظة انقطاعه ليذهب برزمته . وشاء البقال محمد ان يتفكّه ، فجاء بصورة لعبد الناصر وفردها أمام مدخل الجورة ، ثم قال للأجير : «اطمئن ، سوف ينقطع المطر!» ، رامياً بذلك الى القول إن صورة عبد الناصر تقطع الرزق . ولما انقطع المطر بعد حين ، جلجل محمد بضحكته الرنانة وجاراه اخوه مصطفى ، وأخذ الاثنان يرقصان ، وهما يرددان مقاطع ملحنّة تسخر من الوحدة العربية والوحدويين . شخص آخر من رواد الجورة كان مؤيداً للانفصال ، لكنه لم يكن سعيداً ، لانه لم يبلغ حدّ الاطمئنان الى دوامه ، ذلك هو سائق الضابط القومي السوري المتقاعد . هذا الفتى المسكون بالنزق الدائم كان لا يكفّ عن التصريح بأن العهد اللائق بسورية هو ، وحده ، العهد الذي يعيد للحزب السوري القومي اعتباره الكامل ويقتصّ من كل الذين ألحقوا الأذى بالحزب وأعضائه ويمكن الحزب من السيطرة على البلاد وتحقيق وحدة سورية الطبيعية . ولأن قادة الانفصال لم يعفوا عن قادة الحزب المسجونين او الملاحقين ولم يعيدوا ضباطه المسرّحين من الجيش الى الخدمة فإن السائق كان شديد السخط عليهم ، وكان يتهمهم بالجبن والنفاق ويفسر احجامهم عن الافراج عن جماعته بالخوف من الشارع الناصري وممالأة اكرم الحوراني عدو السوريين القوميين القديم . لقد حمل هذا الفتى لأكرم الحوراني بغضاً فاق بغضه لأي شخص آخر ، وظل يردد أمام رواد الجورة انه رأى بعينيه بين اوراق معلمه وثيقة تثبت أن الحوراني انتسب في مطلع شبابه الى الحزب السوري القومي ثم طرد من الحزب لأنه خانه ، ولا بدّ ان يجيء اليوم الذي ينتقم الحزب فيه من هذا الخائن

ويحاسبه على ما الحقه به من اذى .

أما الأجير، حسن، الفتى الفلسطيني الذي حل محلّي في العمل في الجورة، فكان اشدّ الجميع حماساً لعبد الناصر، وما فتئ يرى في عبد الناصر زعيماً عبقرياً وقائداً منزهاً عن الأخطاء. وكان حسن هذا، الذي يرفض أن يقرّ بأن من الممكن ان يخطئ الزعيم، يخرج عن طوره ويبدو مستعداً للعراك إذا أشير لأي من أخطاء الزعيم. وإذا جوبه حسن بما وقع من سلبيات ظاهرة في عهد الوحدة، فانه كان ينسب السلبيات إلى بطانة الزعيم ويبرئه من المسؤولية ازاء وقوعها او حتى المعرفة بها. أما حين يجابه الفتى بما أقرّ به عبد الناصر نفسه من اخطاء، فانه كان يردد عبارة لا يزيد عليها شيئاً: «لا اعرف لماذا يقول الرئيس هذا، الا انه غير صحيح». ولم يكن حسن مستعداً للتجاوب مع أي إنسان لا يجاريه مجاراة كاملة في تنزيه عبد الناصر عن الأخطاء، وقد اعتاد حسن أن يبلغ أقصى درجات الحدّة عندما اتحدث انا، فأنا، عنده، انفصالي خطير، أتستر بالدعوة للوحدة وأنسب لعبد الناصر عدداً من الايجابيات لكي أسيطر على المستمعين لي فأتمكن من إقناعهم حين أتحدث عن السلبيات. وكان حسن يغلظ لي دائماً في القول ويصل إلى حد السفاهة البغيضة ويأبى أن يظهر أي لين إزائي. وكثيراً ما كان هذا الفتى ينذرني بمجيء يوم تعود فيه الوحدة ويستعيد عبد الناصر سلطته فادفع الثمن. بالرغم من ذلك، كنت آخذ هذا الفتى على قد عقله، كما يقال، وقد انتهيت الى التعفف عن الانجرار الى استفزازاته. كان بعيداً عن ذهني ان الوم حسن على حماسته لعبد الناصر أو أدينه بسبب ذلك. كما كان بعيداً عن طبعي، انا الذي يحيطني معظم رواد الجورة باحترام خاص، أن اصل في كلامي او سلوكي الى الحدّ من السفاهة الذي يجرني هو إليه. وصار هذا، بالذات، هو أكثر ما يغيظ حسن من سلوكي ويؤجج حنقه عليّ. فقد صار يرى في تعففي تكبراً وفي تجنبي إيذاءه استهانة به، فيزداد افحاشاً في الكلام ولا يسكت إلا حين ينهره الآخرون فيرغمونه على السكوت ارغاماً، ويظل يتحين الفرص الجديدة لمعاودة الهجوم .

في ذلك العام، لم أولِ دراستي الجامعية أي اهتمام يذكر، فقد استغرقتني المشاغل الأخرى الكثيرة وانضاف إليها أن الدراسة ذاتها لم تنتظم لا في الجامعة ولا في سواها. والواقع أني لم أنتبه الى أن موعد الامتحانات قد اقترب إلا حين قدمت سميّة من عمان.

جاءت الفتاة التي تركتني قبل ذلك غاضبة، وهي ما تزال تحمل توقها المزمن لحملي على الانصراف الى شؤوني الخاصة والكف عن تبديد الوقت والجهد في العمل العام. وبهذا، تجدد نزاعنا القديم، وتعذر التفاهم. وانقضت أسابيع الامتحانات ونحن في نكد مستحكم. كنت، بلا شك، أحبّ هذه الفتاة الطيبة، المجتهدة، الأنيقة، ذات الرشاقة المتميزة والاطلالة الجميلة، المفعمة بالنوايا الحسنة تجاهي. وكنت آمل أن ننهي الدراسة معاً، ثم نجد وسيلة لجمع مصيرينا في مسار واحد. بل إني كنت على استعداد للانتقال الى عمان اذا تعذر تدبير انتقالها هي الى دمشق حتى نعيش معاً. غير ان ملاحظات فتاتي المتكررة على سلوكي، أنا المقتنع تماما بصوابه، مسّت وتراً حساساً فيّ. لم يكن الامر أمر الملاحظات ذاتها ولا كان أمر تشبثها بتكرارها، إذ لو أن الأمر اقتصر على هذا لامكن أن أعدّه دليلاً على فرط اهتمامها بي وعمق حبّها لي. إن ما ضايقني بالذات هو رفضها أي نقاش من جانبي حول رغبتها في إبعادي عن العمل العام، رفضها أن تأخذ أسبابي بعين الاعتبار وتقرّ بحقيّ في ان اسلك وفق قناعتي. لم تتح لي سمية فرصة واحدة للتبسّط في شرح وجهة نظري؛ لم تطلب مني ذلك، ولم تستمع لي حين كنت ابادر اليه. لقد آثرت أسلوب المطالبة بما تريد عبر العبارات القصيرة التي تضمنها ضيقها بسلكي، ليس اكثر، فعددت هذا اعتداء منها على استقلالي الذي تكبدت الكثير من أجل تحقيقه. ولأني لم اكن مستعداً لتعديل سلوكي، على أي نحو من الانحاء، فقد ركبني العناد. تصورت أن على سمية، إن كانت تحبني حقاً، كما احبها، ان تقبلني كما انا. بل ان عنادي حملني على فلسفة الأمر كلّه بما يلائمني ووضع نظرية كاملة حول ما هو صادق وما هو غير صادق، ما هو أصيل وما هو غير اصيل في الحبّ. وكان قوام

هذه النظرية أن الفتاة عرفتني كما أنا ، في سلوكي هذا الذي تعترض عليه ، ولم تعرفني في أي حالة أخرى ، فإذا كانت قد احبتني فعلاً فلا بدّ أن يقترن الحبّ بقبولها لسلوكي ، أما وأنها تعترض عليه ، فهذا يعني ان حبها لي غير صادق وغير أصيل . واستخلصت ، في ضوء هذه النظرية ، أن مَنْ تحبّه سميّة ليس أنا الشخص الموجود بما له وما عليه ، بل الشخص الذي ترسمه في مخيلتها وتريد مني ان اكونه ، ان اتبدل لكي اتطابق معه . ووقف عنادي إزاء عنادها ، وأمعنت هي في العناد فتشبثت أنا بنظريتي . وعندما حان موعد عودتها الى عمان ، كانت قد وضعتني ، من جديد ، أمام انذار مجلجل : «إما أنا وإما السياسة» ، وتوقعتْ أن تجد الإجابة الحاسمة حين تجيء اليّ في المرّة القادمة .

ولما اعلنت نتائج الامتحانات ، خابرت سمية ، ونقلت اليها نبأ نجاحها هي في معظم المواد ، واستفهمت عن موعد قدومها لامتحانات الدورة الثانية ، ثم تعمدت ان اقطع المكالمة قبل ان أجيب على أسئلتها الملحاحة بشأن نتائجي ، ذلك لأني كنت قد رسبت في معظم المواد ، فلم اجرؤ على أن ابلغ هذه النتيجة إليها .

صدمني الرسوب ، بالرغم من اني توقعته قبل الاعلان عن النتائج . وازاء خشيتي من ان اخسر عاماً جامعياً بكامله ، عزمت على تخصيص وقت كاف للدراسة في الصيف كي اتدارك الأمر في دورة الامتحانات الثانية . الا اني رحت أرجىء انفاذ هذا العزم يوماً وراء يوم ، متعللاً بتكاثر المشاغل في ذلك الصيف الذي تواترت فيه الاحداث على نحو لم يفسح لي مجال الانصراف الى الشأن الشخصي . وعندما اقترب موعد الامتحانات دون أن ألقي نظرة واحدة على مواد الدراسة ، منّيت نفسي بأن اتفرغ لها أثناء شهر الامتحانات ذاته . ولأن سمية ستكون في دمشق في هذا الشهر فإن وجودها سيساعدني ، وسأبرهن لها على اني قادر على الجمع بين العام والخاص . والحقيقة ان سميّة جاءت بالفعل وتجنبت أن تجعل من تقصيري في الدراسة سبباً للمناكفة الدائمة ، بل حثتني على تدارك ما فات ، مرجئة الجدل حول مسلكي كله الى ما بعد الامتحانات .

وقد قمت ، بصحبة سميّة ، بما استطعت القيام به ، وأدّيت امتحانين جيدين ، ثم وقع ما ليس في حسباني او حسبانها فقلب حساباتي وصرفني عن المتابعة .

ففي السادس والعشرين من أيلول / سبتمبر ١٩٦٢ ، قامت الثورة في اليمن ، واسقط الثوار نظام الإمامة وأعلنوا الجمهورية ، وتبع ذلك ما تبعه مما تعرف من الاحداث الكبيرة . وقد أثّر هذا تأثيراً قوياً على مجرى الحياة العامة في سورية التي بدا انشغال ناسها باحداث اليمن قريباً من انشغال اليمنيين أنفسهم بها . ولم أعد ، بعد ، قادراً على الاستنكاف عن اداء الواجبات العامة المستجدة ولا بقي في إمكاني أن أجاري رغبة سمية . ولا بدّ ان هذه الفتاة التي حملت نفسها على الصبر لبعض الوقت قد ادركت ، هذه المرة ، على نحو حاسم ، ان الشأن العام هو وحده الذي يجتذبني ، كما لا بدّ أنها ، هي التي لم تعد تراني الا لماما بالرغم من أنها مددت فترة إقامتها في دمشق خصيصاً من أجلي ، قد استاءت اشدّ الاستياء . والمدهش ان سمية التي كانت تكثر ، في السابق ، من توجيه الملاحظات ، التزمت ، هذه المرة ، الصمت التام ، ثم رحلت قبل ان تفوه بكلمة واحدة .

وقعت ، اذن ، الثورة الجمهورية في اليمن ، وأيّدها عبد الناصر علي الفور وجنّد امكانيات مصر لحمايتها ، وايدها البعثيون واستبشروا بها خيراً . وقد اشّر هذا كلّه على بداية المرحلة التي أخذ عبد الناصر يستعيد فيها مكانته بعد هزّة الانفصال وأظهر أن الحركة القومية العربية التقدمية ما تزال قادرة على استعادة زمام المبادرة ، وفهم جميع الذين يعنيهم الأمر ان الكفّة آخذة بالميلان لصالح هذه الحركة .

في ذلك الوقت ، كانت الخصومة بين التيارات القومية ، وبضمنها الناصري والبعثي ، وبين نظام عبد الكريم قاسم في العراق ، المدعوم من الشيوعيين ، قد بلغت ذروتها . كان القوميون يأخذون على نظام قاسم إقليميته ويتهمونه بمعاداة الوحدة العربية ويحرضون الناس ضده على هذا الاساس . وعلى ما بينهم من خلافات عديدة في سورية وغيرها ، تعاون

البعثيون والناصريون في العراق ، مثلما تعاونوا على نحو أو آخر في سورية ذاتها . وبقيام الثورة اليمنية ووجود بعثيين وناصريين في عداد القائمين بها ، ارتفعت معنويات البعثيين الى الأوج ، وتوفر عامل جديد لتعزيز التعاون بينهم وبين الناصريين في سورية والعراق . وبالاجمال ، ساد الاعتقاد بأن سقوط النظامين العراقي والسوري ، لصالح تحالف بعثي ناصري قد غدا مسألة وقت ليس إلا .

في هذه الظروف المؤاتية ، بدأ البعثيون في سورية يجنون ثمرة الجهود التي بذلوها منذ اعادوا تنظيم انفسهم ، وشهد نشاطهم انطلاقة جديدة متّنت حضورهم في الحياة السياسية في البلاد . وقد ترتب على هذا ان زادت الاعباء وكثرت المهام الموكولة الينا . وكان بضمن ذلك أن اشتد تواتر المظاهرات التي نقوم بها في الشوارع ونصطدم خلالها مع قوات الامن . لم تكن الصدامات مستبعدة قبل ذلك ، الا انها صارت منذ الحدث اليمني اشد : جمهور اعظم جرأة وثقة بنفسه في مواجهة حرّاس السلطة الذين فقدوا الإحساس بالثقة بسلطتهم فتدنت معنوياتهم ؛ وقوى سياسية تؤمن بأن فرصتها قد حانت وتتظاهر لإثبات الوجود وتأكيد القوة ؛ وسلطة تدرك ان فرصتها موليّة فتسعى لتمديد أجل نهايتها او تبديل هذه النهاية او تخفيف وقعها . صارت المظاهرات تقوم في الليل فضلاً عن النهار ، وتستهدف مشاغلة قوى النظام واستفزازها وترويعها فضلاً عن كسر هيبتها . واذا كان البعثيون والناصريون قد استنفروا اقصى قواهم للمواجهة فقد استنفرت السلطة من جانبها كل ما لديها من قوى . وانتشرت ظاهرة المظاهرات الطيارة على أوسع نطاق ، يتظاهر مئات من الناس في أمكنة كثيرة متباعدة ويشتبكون مع قوات الشرطة قبل أن تتم هذه تجمعها ثم يتفرقون ليظهروا في أماكن أخرى ويعاودوا الاشتباكات . كنّا ندعى للتواجد في نقطة معينة في البلد في وقت جرى تحديده بدقة ، وما أن نجتمع حتى تنفرد اليافطات المعدة مسبقاً وتنطلق الهتافات فيجتمع ناس المكان حولنا . وعندما تقدم وحدات الشرطة ، كنّا نبادر الى رجمها بالحجارة او نشتبك معها بالأيدي اشتباكات قصيرة مع الحرص على عدم

تمكين الشرطة من القيام باعتقالات، ثم نتفرق بهدي إشارة متفق عليها لنلتقي من جديد في نقطة أخرى.

وفي واحدة من هذه المظاهرات، وكان تجمعنا قد التأم قرب مقرّ رابطة الطلاب المغاربة غير بعيد من حديقة السبكي، اعتقلت الشرطة ثلاثة من أصدقائنا. كانت الطالبة البحرانية فوزية الدلال بين الثلاثة، اما الآخران فهما حميد بصل، أخو محمد، وطالب آخر اسمه موسى الإمام، وكلاهما فلسطيني. وقد سيق الثلاثة الى سجن القلعة في وسط المدينة واخضعوا لتحقيق فوري. فزعمت فوزية التي لا ينقصها الذكاء او الجرأة انها كانت في طريقها الى الرابطة للالتقاء باحد الزملاء لشأن يتعلق بدراستها حين فوجئت بالقاء القبض عليها. وتظاهرت الفتاة ذات الخبرة الطويلة في العمل السري بالبراءة التامة واستنكرت أن تعتقلها الشرطة هي الفتاة الغريبة عن البلد، وطلبت ان يخلى سبيلها فوراً. وقد أفرج عن فوزية في الليلة ذاتها التي اعتقلت فيها. اما الطالبان الفلسطينيان فإن الشرطة ابقتهما في السجن بضعة ايام اخرى، ثم اقدمت السلطة على خطوة غير مسبوقة في الحياة السياسية السورية، اذ قامت بابعاد الطالبين عن البلد وقذفت بهما، عنوة، خارج الحدود، باتجاه الأردن. وأذهلنا هذا الاجراء الغريب نحن الذين لم نألف التمييز بين فلسطيني وسوري. وأثار الاجراء سخطاً شاملاً في الأوساط الطلابية على اختلاف تياراتها، واستنكرته قوى سياسية كثيرة بما فيها قوى تؤيد الانفصال. وكان أن تحول إبعاد السلطات للطالبين الفلسطينيين الى حافز جديد لمظاهرات جديدة تطالب بإعادتهما. وفي الاردن، الذي وُجد الطالبان فجأة داخل حدوده، لم يبد هذا الاجراء السوري مفهوماً للسلطات. وكانت هذه السلطات تضيق بالمشاغبين من مواطنيها الفلسطينيين ولم يكن لديها ما يحملها على الترحيب بمشاغبين آخرين تلقيهم اليها سلطات بلد آخر. ولا بدّ أن السلطات الاردنية تحسبت من أن يصير الأمر سابقة فيزيد من همومها مع الفلسطينيين، فأظهرت معارضتها للإبعاد. وبالرغم من هذه المعارضة وازدياد استنكار الشارع السوري للإبعاد، فان عودة حميد وموسى من

السجن في الاردن الى دمشق لم تتحقق الى أن تولى البعث السلطة في سورية فاستعادهما، واحتفلنا بعودتهما احتفالاً مجلجلاً. لكن، بعد حادث الإبعاد، هذا، لم يقدم عهد الانفصال على إبعاد أحد بالرغم من تهديدات سلطاته بأنها ستبعد المشاغبين من الفلسطينيين. والمثير للانتباه، في هذا الحادث، ان السلطات التي تتكتم في العادة حين يتعلق الأمر بما تقدم عليه من اجراءات القمع، قد تعمدت أن تذيع بياناً رسمياً حول إبعاد الطالبين الفلسطينيين وتتوعد بإبعاد المزيد. ولم يكن للإعلان عن الإبعاد سوى تفسير واحد، إذ إنه جاء في سياق محاولة السلطات للايحاء بأن الذين يعارضون الانفصال وينشطون في مقاومته هم الفلسطينيون، وحدهم، في حين ان السوريين راضون به. والحقيقة أن المزاج الفلسطيني الغالب كان، حقاً، ضد الانفصال، وأن المنتمين من الفلسطينيين للأحزاب والتنظيمات الوحدوية كانوا بين النشطاء في مقاومة السلطة. إلا أن هذا لا يعني أن الفلسطينيين كانوا، كلهم، ضد الانفصال او نشطاء في مقاومته، كما ان هذا لا يطمس الحقيقة الماثلة وهي أن غالبية السوريين، وبضمنهم ناس ايدوا الانفصال في البداية، قد ايدت المعارضة التي يقف البعثيون والناصريون في طليعة صفوفها.

ومهما يكن من أمر، فإن ازدياد نشاطات المعارضة حدّة وجرأة وجد أصداءه الفورية في الجيش، فازداد تواتر التمردات العسكرية، وانضم عسكريون وحدويون كثيرون الى النشاطات العلنية، فازداد، بالتالي، عدد المعتقلين او المسرّحين او الملاحقين في الجيش وعم السخط معظم الوحدات، ووهنت مقدرة القيادة العسكرية في مجال السيطرة على جيشها.

في هذه الاثناء، واصلنا نحن البعثيين الفلسطينيين، مطالبتنا بتعزيز وضعنا باعتبارنا منظمة مستقلة داخل الحزب، وكنّا نطمح الى ان تقرّ القيادة القومية بوجود قطر فلسطيني وتشكيل منظمة حزبية قطرية تضمّ البعثيين الفلسطينيين أيا كان مكان تواجدهم. ومن جانبها، واصلت القيادة القومية، وخصوصاً امينها العام ميشيل عفلق، معارضتها لهذا

الطموح الذي رأت فيه نزعة غير مقبولة نحو القطرية ، او الإقليمية . ولم نكن قد ظفرنا ، بعد ، بفرزنا ، في دمشق ، في فرقة خاصة ، حين عرفنا ان منظمة الحزب في غزة وكل اعضائها ، بالطبع ، من الفلسطينيين ، تطالب بالشيء ذاته ، وان فلسطينيين بعثيين آخرين في أماكن أخرى متفرقة ، في القاهرة ، ولبنان ، والكويت ، يتطلعون الى الهدف ذاته . وكان بإمكان هؤلاء الطلبة ان ينسقوا جهودهم بصورة غير رسمية خلال اللقاءات التي تجمعهم في اطار نشاطات الاتحاد العام للطلاب . ثم ان لجنة فلسطين المشكّلة في دمشق لعبت دوراً مهماً في هذا المجال ، تم ذلك من خلال الدراسات والتوصيات التي تبلورها اللجنة وتضعها في تصرف القيادة ، بالإضافة الى المطالبة المباشرة الصريحة . وقد انتهى هذا كله بما شكله من ضغط على المعارضين وبما اجتذبه من تأييد ، الى أن توافق القيادة القومية على عقد لقاء يضم ممثلين عن الأعضاء الفلسطينيين في الحزب في اكثر من بلد . لم تشأ القيادة أن تسمّي هذا اللقاء مؤتمراً ولم تقبل ، بالتالي ، ان يختار المندوبون إليه بالانتخاب ، بل احتفظت لنفسها بحق تسمية المندوبين ، معطية للّقاء ، بهذا ، طابعاً استشارياً وحارمة ناسه من أي صلاحيات تنظيمية . وبعد التشاور مع لجنة فلسطين وقيادة التنظيم في قطاع غزة والمعنيين الآخرين بالأمر ، تقرر ان ينعقد اللقاء في بيروت . فبدأنا ، في دمشق ، فور تلقينا قرار القيادة بعقد اللقاء ، الاستعداد له ، مصممين على أن نجعله من الناحية العملية مؤتمراً لفلسطينيّي حزب البعث .

هنا ، تحولت لجنة فلسطين الى خلية للدراسة . وقد أعددنا دراسة وافية حول القضية الفلسطينية ، ودور الشعب الفلسطيني فيها . وكان أهم ما ركزت عليه الدراسة ، مما لا أزال أتذكره ، ضرورة التمييز بين حزب البعث ، بوصفه حزباً سياسياً ذا لون واحد وأهداف من طبيعة طبقية ، والحركة الوطنية الفلسطينية المتنامية التي تتشكل من تيارات كثيرة وتتخصص في العمل لتحرير الوطن المغتصب . وفي المناقشات التي بلورت هذ الدراسة ، وضعنا اليد على جملة من الافكار التي ستصير منذ ذلك الوقت هادية

لسلوكي في الشأن الفلسطيني . فإلى تعمق القناعة بأهمية التكامل بين العمل الوطني الفلسطيني والعمل القومي العربي ، برزت القناعة بضرورة التوجه الى حصر اسرائيل ضمن امكانياتها وعدم اتاحة الفرصة لها كي تتوسع . لقد تلمسنا منذ ذلك الوقت المبكر مخاطر السياسات المزايدة التي ترفع شعار القضاء على اسرائيل ، واقتنعنا بأهمية اتباع سياسة عقلانية توائم الظروف والامكانيات المتوفرة فعلاً ، كما لمسنا ، منذ ذلك الوقت ، أيضاً ، الاهمية الاستثنائية لابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية وبناء الكيان الفلسطيني الخاص وتأثيره المتوخى في المجالين العربي والدولي . وقد أنهينا الدراسة بقائمة من المقترحات ؛ وكان ابرزها دعوة الحزب الى تبنّي العمل لتشكيل جبهة وطنية فلسطينية تضم قوى الحركة الوطنية الفلسطينية كافة ، وفي عدادها البعثيون الفلسطينيون ، ويدعمها الحزب بإمكانياته القومية دون أن يتدخل في شؤونها الداخلية ، والعمل على إبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية وتأييد كل ما من شأنه أن يدعم اعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني الذي دمرته كارثة ١٩٤٨ . واقترحت اللجنة قائمة بأسماء الأعضاء الذين يمثلون بعثيي سورية في اللقاء المرتقب . وكنت واحداً منهم ، وكان منهم ، ممن لا ازال أتذكر أسماءهم ، محمد بصل واميل صبيح وعمر خليفة المغرم بالشؤون النظرية ، كما كان منهم كمال الخالدي الحائز حديثاً على دبلوم الدراسات الاجتماعية من جامعة القاهرة والمتردد حتى ذلك الوقت بشأن دعوتنا الى التميز الفلسطيني في إطار الحزب .

ولأن الفلسطينيين كانوا ممنوعين من دخول لبنان إلا بعد سلسلة من الاجراءات المعقدة التي يصعب علينا اتمامها ، فلم يكن بمقدور أي منّا أن يسافر الى بيروت بصورة شرعية . وقد حاولت قيادة الحزب ان تحصل لنا على الإذن الخاص الذي يمكننا من دخول لبنان والذي ينبغي ان يوقعه وزير الداخلية اللبناني شخصياً ، فلم تفلح في الحصول عليه . عندها ، تقرر ان ندخل لبنان تهريباً . وقد اصدرت قيادة الحزب تعليماتها الى منظمة حمص ومنظمة لبنان كي تعدّا الترتيبات اللازمة لتهريبنا عبر الحدود

وتأمين اقامتنا في العاصمة اللبنانية . وهيأنا انفسنا للسفر الوشيك ، وانتقلنا الى حمص . الا ان امراً لم يكن في الحسبان ، ولم اعد اتذكر تفاصيله ، افسد الترتيبات المعدة لعبورنا الحدود ففشلنا في عبورها . لكن اللقاء الموعود انعقد بالرغم من غيابنا عنه نحن الدّاعين إليه . وقد حضر هذا اللقاء بعثيون فلسطينيون من لبنان وغزة والاردن والكويت ، وشكّلت الدراسة والمقترحات التي اعددنا في دمشق اساس مداولاته ، وانتهى الأمر بأن تبنى الحاضرون المقترحات التي قدمناها .

بعد ذلك بوقت قصير ، اي في شباط / فبراير ١٩٦٢ ، انعقد المؤتمر القومي الخامس للحزب ، وكان هذا هو المؤتمر الاول الذي ينعقد بعد الانفصال ، وهو الذي بلور شؤون الحزب التنظيمية وخطه السياسي وأكد تعافي الحزب منِ الأزمة التي تعرض لها بعد وقوع الانفصال . انعقد المؤتمر في حمص ، سراً ، بالطبع ، ولم أكن في عداد المندوبين اليه لكنني تابعت مجرياته بدقة من خلال صلتي الحميمة بعددٍ من المندوبين . لقد شهد هذا المؤتمر حضوراً كثيفاً للبعثيين العراقيين ، فضلاً عن السوريين . وشكّل الشأن الفلسطيني واحداً من محاور الاهتمام في المؤتمر ، ليس بسبب ضغوطنا ، وحدها ، بل لأن هذا الشأن كان يفرض نفسه على اهتمامات العاملين في السياسة في البلدان العربية كلها ، وخصوصاً منها تلك التي يتواجد فيها الفلسطينيون . وكان السعي الى ابراز الشخصية الفلسطينية وإعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني قد تحول من دعوات متفرقة تظهر هنا أو هناك ويجهر بها هذا او ذاك الى حركة متزايدة الحضور والفاعلية ، بحيث لا يملك أحد أن يتجاهلها .

وفي المحصلة ، تبنى المؤتمر القومي الخاص لحزب البعث ما طالب به اللقاء البعثي الفلسطيني في بيروت ، فأكد على قرار المؤتمر الرابع بالعمل على انشاء جبهة وطنية فلسطينية وأوجب على الحزب تأييدها . وبهذا ، سجلِ المؤتمران القوميان ، الرابع والخامس ، في تاريخ حزب البعث ، موقفاً رائداً سبق الحزب فيه المنظمات العربية القومية الرئيسية الأخرى . أما بالنسبة لنا نحن البعثيين الفلسطينيين فقد مثّل القرار مكسباً كبيراً شعرنا

أننا حققناه بثباتنا في المطالبة بتميز الفلسطينيين والقضية الفلسطينية . وقد سلّحنا القرار بالسند الشرعي في الحزب لمتابعة جهدنا في هذا الاتجاه . وإن يكن هذا السعي بالذات هو الذي عرّضنا لبغض الكثيرين من البعثيين . كنّا سعداء بما انجزناه وقد عددناه خطوة متقدمة في الاتجاه الصحيح ، اما مبغضونا فاتهمونا بالإقليمية ، وتشبثوا بمعارضة مطالبتنا بالتميّز في منظمة حزبية مستقلة .

وبعد أن أنهى المؤتمر أعماله في حمص ، وفي جوّ التفاؤل العميق الذي عززه نجاح عمل المؤتمر ، جاء الكثير من اعضائه غير السوريين الى دمشق ، وكان بين هؤلاء عدد كبير من العراقيين . ولأن معظم المندوبين العراقيين الى المؤتمر كانوا في عداد من أيّدوا دعوتنا الى الجبهة الوطنية الفلسطينية وتحمسوا لها ، فقد حرص محمد بصل على جمعهم بنشطاء البعثيين الفلسطينيين في دمشق . وهكذا تهيأ لي أن أتعرف على علي صالح السعدي وكريم شنتاف وهاني الفكيكي وطالب شبيب وحمدي عبد المجيد وفيصل الخيزران وكثيرين آخرين من الذين يقودون منظمة الحزب في العراق والذين انتخب عدد منهم أعضاء في القيادة القومية الجديدة للحزب ، وحققوا للعراق حضورا كبيراً في هذه القيادة . ومع هؤلاء ، ضمتني لقاءات كثيرة ، انعقد بعضها في منزل محمد أو في المنازل التي يقيمون فيها ، وانعقد بعضها الآخر في أماكن عامة أبهج هؤلاء أن يتمكنوا من السمر فيها بعد أن طال بهم الأمر في العمل سرا تحت الارض في العراق . والواقع اني سعدت بمعرفتي بهؤلاء البعثيين المفعمين بالحماس . إلا أن سعادتي بهم شابها شيء لم يكن له عندي في ذلك الوقت تأثير حاسم ، لكنه لم يكن أيضاً بغير تأثير ، فقد لاحظت خلال الحوارات المديدة التي أدرتها معهم انهم مسكونون ببغض شديد للشيوعيين وتوق هائل للانتقام منهم . لم تكن لي في ذلك الوقت أي صلة خاصة بالشيوعيين ، وكنت مثل البعثيين ، آخذ على الشيوعيين الكثير من مواقفهم كما كنت اعدّ تأييدهم للعهد الانفصالي خطأ وقعوا فيه دون مبرر معقول ، لكنني لم ابلغ حدّ احتساب الشيوعيين في عداد الاعداء . وقد

حاججت محاوريّ العراقيين طويلاً في هذه النقطة ، وإن ظللت عاجزاً عن تليين روح العداء المستحكمة في نفوسهم ضد الشيوعيين . ولا بدّ ان تشبثي بالمحاججة قد لفت نظر الرفاق العراقيين الذين لم يتوقعوا ان يجدوا في الحزب مَنْ يدعوهم لتخفيف بغضهم لأعدائه . أما أنا ، فقد تشكّل عندي ، منذ ذلك الوقت ، شيء ما ضد هذه العداوة ، شيء ليس بالضبط قلقاً أو ريبة ، ولكنه ، على كل حال ، سلبي ، وان لم يمنعني ، في حينه ، من الاستمتاع بالصحبة الجديدة المتوفرة لي والاستمتاع بما اكتشفته من تقارب في وجهات النظر في شؤون اخرى كثيرة .

وأيا كان أمر هواجسي هذه . فإن المؤتمر القومي الخامس أعطى دفعة جديدة فعّالة لعمل حزب البعث ؛ فقد حسم مسألة الافتراق الكامل بين الحزب المتطلّع لوحدة عربية مدروسة ومشروطة بتوفر الأسس التي يرى البعثيون انها تضمن استمرارها وبين الذين انفصلوا عن الحزب فأيدوا الانفصال أو انضموا الى دعاة الوحدة الفورية من الناصريين . كما أعطى المؤتمر دفعة مماثلة لعمل الحزب على الساحة الفلسطينية . وكان في عداد القيادة القومية التي انتخبها المؤتمر الفلسطيني خالد اليشرطي ، وهو أول فلسطيني يدخل هذه القيادة بهذه الصفة ، اذا تذكرنا ان الفلسطيني عبد الله الريماوي ظفر بعضوية القيادة القومية في الخمسينات بوصفه ممثلاً لحزب البعث في الاردن . وقد تميز اليشرطي ، الذي كان بين نجوم لقاء بيروت الفلسطيني ، بتأييده لتوجهنا الى التميز ، فظفرنا ، بوجوده في القيادة القومية ، بدعم جديد لهذا التوجه .

ومضت الأيام ، مفعمة بالأحداث ، ونحن غارقون فيها حتى الآذان . واستمر الحزب في تعزيز مكانته ، في الشارع ، وفي المنظمات الجماهيرية والنقابية ، وفي الجيش . واتبع الحزب سياسة صبورة مع الناصريين ، سياسة قوامها البحث عما هو مشترك معهم وحملهم على التعاون . وبدا لكل ذي بصيرة في البلاد ان راية المستقبل منعقدة للبعثيين والناصريين ، وهذه حقيقة ادركها الانتهازيون ، أيضاً ، والمترددون بين تأييد الانفصال وتأييد التوجه الوحدوي ، مما حمل كثيرين منهم على الالتحاق بالركب

قبل فوات الأوان . فكان ان شهدت حركة الانتساب للبعث او للمنظمات الناصرية تزايداً لم يسبق له مثيل .

وفي يوم ، كنّا متجهين فيه لعقد اجتماع للجنة فلسطين في منزل محمد بصل ، وقبل أن نبلغ المنزل ، انفرد محمد بي ، وكان قد عاد لتوّه من لقاء مع صلاح البيطار ، وسألني هذا السؤال : «كيف سيكون رد فعلك لو أن الجيش قام بانقلاب ونجح في اقصاء الانفصاليين ثم دعا قيادة الحزب الى استلام السلطة؟» . ولأن أمراً كهذا الامر كان بين ما يرد في البال في ظروف تلك الفترة ، فقد كان جوابي حاضراً : «يتوقف الأمر على طبيعة العسكريين الذين يقومون بالانقلاب ، هل هم اعضاء في الحزب ام لا ، وهل يقومون بالانقلاب تنفيذاً لخطة وضعها الحزب ، ام بمبادرة منهم ، وعلى مدى ولائهم للحزب واستعدادهم للانصياع لاوامر قيادته ، هل نحن إزاء ثورة يشكل العسكريون رأس حربتها أم إزاء مغامرة لعسكريين يبحثون عن جمهور يؤيدهم؟» . ورحت ، في ما بقي من الطريق الى المنزل ، أقلّب الاحتمالات .

ولم أدرك وقتها ان حديثنا كان يدور حول حدث قد تم إعداده بالفعل .